أهمية التفسير الموضوعي ومنهجيته في معالجة القضايا المستجدة

د. أحمد عبد الكريم الكبيسي*

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له ومن يُضلل فلا هادي له، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ونشهد أنَّ مُحمَّداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

أما بعد: فلا يخفى على أحدٍ منا هذه المستجدات التي تمر بها أمتنا، من معطيات التقدم الفكري والحضاري، وفي المقابل ما تعانِيه من أزماتٍ متلاحقة، وما تواجهه من فتن متعاقبة، وما تكابده من أعداء متربِّصين، يمكرون لها ليل نهار، لا سبيل إلى العصمة منها إلا بالرجوع إلى القرآن الكريم الذي أنزله ربُّنا هدىً وتبياناً لكلِّ شيء في ضوء ما اشتمل عليه من هداية وحكم وأحكام وقصص وأمثال.

والمتتبع لنزول القرآن الكريم -سورة وآية- من حيث زمن النزول وأسبابه والنظر في مناسبات السور والآيات التي قبلها والتي بعدها، ليُدرك أنَّ التفسير القرآني يكاد يكون تفسيراً موضوعياً، هذه الحقيقة الجلية لتظهر ناصعة من خلال الحدث المرتبط بالواقع المليء بالأحداث والمشكلات.

ومن هنا يُدرك الباحث حقيقة التفسير الموضوعي الذي يولي اهتماماً بمقاصد القرآن وخصائصه ويكشف عنها من خلال تتبع اللفظة ودلالاتها السياقية، وارتباط السور بعضها ببعض فضلاً عن الآيات من حيث بداياتها وخواتيمها، والتي تبرز أهميته في

* جامعة إب، اليمن.

إصلاح واقع الحياة ومواكبته، فهو متجدد ومعطاء وهو السبيل لحل مشاكل العصر ومعطيات الحضارة، وهو السبيل لبيان مدى حاجة الإنسان إلى هذا الدّين وحل مشكلاته المستجدة، فضلاً عن تحقيق هذا اللون من إثراء المعلومات حول قضية معينة وتأصيل للدراسات والمناهج في كل مناحي الحياة، وإحداث أبحاث قرآنية متخصصة تظهر لنا جوانب جديدة من وجوه الإعجاز، وحقائق قرآنية وسنناً إلهية في الكون والحياة والعلوم والمعارف المستجدة ممّا يسهل الاطلاع عليها، ويسهم في إيصال الباحثين نحو الهدف دون تعب أو مشقة ولاسيما أنهم ينتهجون منهجاً قويماً وهو تفسير الآيات بعضها ببعض، والتقيد بذلك في ترابط قضاياها بوحدتها الموضوعية ومدى ذلك الانسجام والتناسب بين هذه القضايا؛ مما يكون موضوعاً متكاملاً دون النظر إلى الأفكار الخارجة عن هدي القرآن الكريم.

لذا صار من أهمِّ المطالب الضرورية للباحثين اليوم في التفسير: دراسة التفسير الموضوعي والاعتناء به وفهم منهجه بكلّ دقة؛ لما يتسم به من منهج فريد ومسلك علمي في اختيار الألفاظ، وثراء المعاني وروعة الطرق في جمع الآيات وتتبعها وتنزيلها على الواقع واستخلاص الهدف، مع مراعاة مقاصد القرآن وأصول التفسير وقواعده ولما يحتله من موقع ودور حاسم في تنشيط الهمم واستنهاض أمّتنا وتوجيه طاقاتها نحو هذا اللون ومدى ارتباطه بميادين الحياة، والذي يتنوع حسب مستجدات العصر ومعطياته ممّا يجعله أقرب إلى النضج والكمال، ويزيد المفسر معلوماتٍ قيمة لم يظفر بها غيره.

وانطلاقاً من هذا يجيء عنوان هذا البحث: (أهمية التفسير الموضوعي ومنهجيته في معالجة القضايا المستجدة)، وفي ضوء ما تقدم يجيء البحث في أصله يتقدّمُه مقدِّمةٌ، وتقفوها ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: ويتضمَّن التعريف بالتفسير الموضوعي بشكل مقتضب يُحدّد حقيقة مصطلح التفسير الموضوعي والتطرّق إلى نشأته وأنواعه، مع ذكر مميزاته وفوائده.

وعقدت المطلب الثاني: للتعرّف على أهمية التفسير الموضوعي في حياة الأمَّة.

وأمَّا المطلب الثالث: فقد احتوى منهجية التفسير الموضوعي في معالجة القضايا المستجدة. مع ذكر بعض النماذج التي تعضد ما تطرّقتُ إليه معتمداً في ذلك -بعد الله تعالى- على المصادر والمراجع العلمية المتخصّصة في معرفة المادة وتوثيقها. ومن ثمَّ

أتبعتُ ذلك بخاتمةٍ ذكرتُ فيها ملخَّصَ ما توصَّلتُ إليه من نتائج.

وفي الختام فإنَّ هذا البحث يهدف في كلِّ وقفةٍ من وقفاته إلى تشجيع الباحثين للبحث الموضوعي بجميع ألوانه في القرآن الكريم، والتعرُّف على أهميته وأثره في مجالات الحياة، والتأكيد على وضع دراسات قرآنية لنظريات القرآن الموضوعية ونصوص الموضوعات المستجدة والمشكلات المعاصرة وحلولها القرآنية. كما يهدف هذا البحث إلى مزيد من تأصيل نظرية التفسير الموضوعي المعاصر وإلى الربط أو البحث عن مقصوده وفق أصول التفسير وقواعده المنضبطة؛ وذلك لإبراز حقيقة الجانب المنهجي له، ممَّا يبرز أهمية التفسير الموضوعي، إذ أنني أوقن بأنَّ هذا الموضوع ليس قاصراً على الجمع أو تذوق الأساليب وإبراز ما فيها من جمال وتعبير وتنظيم؛ لأنَّ ذلك يُبعد هذا اللون عن دائرته العلميَّة، ويلحقه بموضوعات الفنون، بل كلّ وقفة من وقفاته لا بد أن يكون لها دور في خدمة الإنسان والمجتمع وفق منهج الله تعالى ليتحقق بذلك استخلاف الإنسان وسعادته.

وإنَّ مثل هذه الموضوعات ستجلي الكثير عن حقيقة تأصيل نظرية التفسير الموضوعي وصلته بالقرآن الكريم من خلال إنعام النّظر في الأهداف وكشف المعاني، والتي تعد المصدر الأساس في التدبر والتفكر في خلق الله عن يقين. والحمد لله ربِّ العالمين.

المطلب الأول: التعريف بالتفسير الموضوعي

من أنواع التفسير الذي سلكه العلماء قديماً وحديثاً هو التفسير الموضوعي، ويحسن بي قبل البدء في الحديث عن أهميته أن أمهد بشيء من الإيجاز عن التعريف به، ونشأته، وأقسامه، ومميزاته وفوائده ومنهجيته من خلال الفروع الآتية:

الفرع الأول: تعريف مصطلح التفسير الموضوعي

يتألف مصطلح (التفسير الموضوعي) من جزأين ركبا تركيباً وصفياً، وللوقوف على تعريف هذا المصطلح المركب لا بد من تعريف جزئيه، ثم يُجمع بينهما ليُعطي تعريفاً أقرب ما يكون لهذا المصطلح المعاصر.

فالتفسير لغةً: من الفسر وهو الاستبانة والكشف[1]. قال الرَّاغب الأصفهاني: «الفسر: إظهار المعنى المعقول»[2]. وقال ابن منظور: «والتَّفْسير كَشف المُراد عن اللفظ المُشْكل»[3]. واصطلاحاً: هو «توضيح معنى الآية وشأنها وقصتها والسبب الذي نزلت فيه بلفظ يدل عليه دلالة ظاهرة»[4]. وعرَّفه أبو حيان بقوله: «علم يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ومدلولاتها وأحكامها الإفرادية والتركيبية ومعانيها التي تُحمَل عليها حالة التركيب وتتمات لذلك»[5].

والموضوعي لغةً: أصله من الوضع وهو أعمّ من الحط، ومنه: الموضع، قال تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء: 46]. ويقال ذلك في الحمل ... وضعت الحمل فهو موضوع، قال تعالى: ﴿ مَّوْضُوعَةٌ﴾ [الغاشية: 14]، ﴿وَٱلْأَرْضَ لِلْأَنَامِ﴾ [الرحمن: 10] فهذا الوضع عبارة عن الإيجاد والخلق ووضعت المرأة الحمل وضعاً، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ [آل عمران: 36][6].

إذن هو جعل الشيء في مكان ما وتثبيته، سواء أكان ذلك «الوضع بمعنى: الحط أو الإلقاء، تقول: وضع يضع وضعاً وضعة، ومنه الموضع»[7]. وهذا المعنى ملحوظ في التفسير الموضوعي؛ لأنَّ المفسر يثبت كلَّ آية في موضعها من المعنى الكلي للقضية التي يبحثها. مما يلزم المفسر الارتباط بمعنى معين وصفة معينة، لا يتعداهما إلى

1- البحر المحيط: لأبي حيان (محمد بن يوسف الأندلسي ت745هـ)، تح. الشيخ عادل أحمد، وزملائه، ط1 دار الكتب العلمية، بيروت 1422هـ-2001م: 1/ 121.

2- مفردات ألفاظ القرآن: للراغب الأصفهاني (الحسين بن محمد ت 502هـ)، ط دار القلم، دمشق: 2/ 192.

3- لسان العرب: لابن منظور (محمد بن مكرم ت711هـ)، ط1 دار صادر، بيروت: مادة (فسر): 5/ 55.

4- التعريفات: للجرجاني (علي بن محمد بن علي ت816هـ)، تح. إبراهيم الأبياري، ط1 دار الكتاب العربي، بيروت 1405هـ: 87، التوقيف على مهمات التعاريف: للمناوي (محمد عبد الرؤوف ت1031هـ)، تح. د. محمد رضوان الداية، ط1 دار الفكر المعاصر، ودار الفكر، بيروت، دمشق 1410هـ: 192.

5- البحر المحيط: 1/ 121.

6- مفردات ألفاظ القرآن: 2/ 520.

7- البحر المحيط: 2/ 450. (بتصرف يسير)

غيرهما حتى يفرغ من تفسير الموضوع الذي التزم به[8].

واصطلاحاً: «هو عبارة عن المبحوث بالعلم عن أعراضه الذاتية»[9]. وقال الدكتور مصطفى مسلم: «هو قضية أو أمر متعلق بجانب من جوانب الحياة في العقيدة أو السلوك الاجتماعي، أو مظاهر الكون تعرضت لها آيات القرآن الكريم»[10].

أمَّا تعريف (التفسير الموضوعي): فقد عرّفه أهل الاختصاص بعدة تعريفات نختار منها ما نظنه أجمعها وهما اثنان لكونهما تناولا التعريف بشمولية ودقة ووضوح لا لبس فيه، وهما:

- الدكتور عبد الستار سعيد إذ قال: «هو علمٌ يبحث في قضايا القرآن الكريم، المتحدة معنىً أو غاية عن طريق جمع آياتها المتفرقة، والنظر فيها، على هيئة مخصوصة، بشروط مخصوصة، لبيان معناها، واستخراج عناصرها، وربطها برباط جامع»[11].
- والدكتور مصطفى مسلم، إذ عرّفه بقوله: «هو علم يتناول القضايا حسب المقاصد القرآنية من خلال سورة أو أكثر»[12]. ويمكننا إضافة: دراسة متكاملة مع مراعاة المتقدم والمتأخر منها والاستعانة بأسباب النزول، والسنة النبوية، وأقوال السلف الصالح المتعلقة بالموضوع.

وقد أُضيفت كلمة (تفسير) إلى كلمة (موضوعي) فصارتا عَلَماً على هذا اللون من التفسير. كما تعددت تعاريف هذا الاصطلاح بين جمهرة الباحثين وإن بدا من أكثرهم اتجاه إلى حصره في جانب من جوانبه الرحيبة وهو الجانب المتعلق بموضوع ما من موضوعات الحياة، لذلك ترجَّح عندهم تعريفه بأنه: علم يتناول القضايا القرآنية، من خلال جمع الآيات المتفرقة لفظاً أو حكماً، ذات العلاقة بموضوع واحد وتفسيرها

8- ينظر: المدخل إلى التفسير الموضوعي: أ. د. عبد الستار فتح الله سعيد، ط1 دار الطباعة والنشر الإسلامية 1406هـ-1986م: 23.

9- الكليات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية): لأبي البقاء الكفوي (أيوب بن موسى 1094هـ)، تح. عدنان درويش، ومحمد المصري، ط مؤسسة الرسالة، بيروت 1419هـ-1998م: 868.

10- مباحث في التفسير الموضوعي: أ. د. مصطفى مسلم، ط1 دار القلم، دمشق 1410هـ-1989م: 16.

11- المدخل إلى التفسير الموضوعي: 20.

12- مباحث في التفسير الموضوعي: 16.

بحسب المقاصد القرآنية[13].

وعلى ذلك فلا يُعد التفسير الموضوعي تفسيراً عاماً بالمعنى الاصطلاحي المألوف لدى جمهرة المفسرين ذلك أنه لا يتناول كل آيات القرآن على صورة الترتيب المُصْحفي، وإنما هو جمع للآيات الواردة في موضوع واحد، ثم تصنيفها بطريقة منهجية تعين على تنسم هداياتها، وتلمس مقاصدها واستخراج مكنوناتها[14]. إلا أنَّ بعض أهل العلم ينظرون إليه على أنه لون تفسيري مستقل يعتمد المنهجية في النظر إلى القرآن الكريم كمنحة إلهية ذات مقاصد شمولية تشمل حاجات البشرية في كل زمان ومكان، على مستوى يضمن لها الصلاح والترقي اللائق برتبة التكريم الإلهي للإنسان. يقول الدكتور محمد البهي: «التفسير الموضوعي ليس تفسير جملة من الآيات، ولا استخلاص مضمونها في وحدة قرآنية، وإنما هو استخلاص مضمون الكتاب ككل من نظرة موضوعية شاملة مرة، أو استخلاص موضوع محدد كمنهج القرآن في تطوير المجتمع، أو موقف القرآن من المادية مرة أخرى أو استخلاص هدف السورة الواحدة وما عنيت بإبرازه في إطار الدعوة كلها مرة ثالثة»[15].

إذن حقيقة التفسير الموضوعي هو جمع متفرق من الآيات التي تتحدث عن موضوعٍ أو لفظة أو جملة ودراسة هذا المجموعِ بعد تبويبه، واستنتاج الفوائد، واستخلاصِ الهدايات والعِبَر من هذا المجموع. ولا يمكن بحث هذا المجموع من خلال القرآن فقط؛ لأنَّ صورة الموضوع لا تتمُّ بالنظر إلى القرآن فحسب، بل لا بدَّ من إضافة السنَّة وآثار السلف لبيان هذا الموضوع.

الفرع الثاني: نشأة علم التفسير الموضوعي

ظهر التفسير الموضوعي عند القدماء في وقت مبكر، فقد نشأ في عهد النبوة ولا يزال إلى يومنا هذا وقد يخيل للقارئ أنَّ هذا العلم لا يعرف لدى علمائنا الأقدمين، وإنما الكتاب المعاصرون هم الذين اعتنوا به وقدموا فيه جهوداً قيمة. والمتتبع لجهود

13- ينظر: التفسير الموضوعي: د. محمد القاسم، ط القاهرة 1401هـ: 7- 8، المدخل إلى التفسير الموضوعي: 20، مباحث في التفسير الموضوعي: 16.

14- ينظر: دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: أ. د. زاهر عواض الألمعي، ط الفرزدق، جدة 1405هـ: 15

15- نحو القرآن: محمد البهي، ط مكتبة وهبة 1406هـ-1986م: 89.

علمائنا الأقدمين في هذا الفنِّ التخصصي يجد لهم جهوداً واضحة وأيادي علمية مشرقة وقد تعددت المواضيع القرآنية التي ألفوا فيها فمنها ما وصل إلينا ومنها ما زال حبيساً بين جدران المكتبات وركام التراب ومنها ما فُقِدَ ولم نعلم عنه إلا من خلال الكتب العلمية أو الثبت العلمي لصاحبها. بَيْدَ أنَّ مصطلح (التفسير الموضوعي) وإطلاقه على هذا الأسلوب من التفسير لم يظهر إلا في النصف الثاني من القرن الرابع عشر من الهجرة إذ ظهرت بوادر الاهتمام بهذا الموضوع أكثر عناية وشيوعاً. ولعل ذلك يعود إلى أنَّ استيعاب تفسير القرآن أمر عسير على أهل العصر، إذ يتطلب جهداً متواصلاً وزمناً طويلاً وتفرغاً قد لا يتأتى للكثير؛ نظراً لظروف الحياة والعيش في هذا الزمان.

فكانت لبنات هذا اللون من التفسير وعناصره الأولى موجودة منذ عصر التنزيل في حياة رسول الله ﷺ، ومن ذلك ما روى البخاري في صحيحه[16] عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: 82] شَقَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَالُوا أَيُّنَا لَمْ يَلْبِسْ إِيمَانَهُ بِظُلْمٍ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّهُ لَيْسَ بِذَاكَ، أَلاَ تَسْمَعُ إِلَى قَوْلِ لُقْمَانَ لاِبْنِهِ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: 13]».

«فهذه إشارة نبوية واضحة بأنَّ اللفظ الواحد قد تكون له معان متعددة في القرآن الكريم وأن جمع الآيات يفيدنا في تحديد المعنى المراد في كل مقام كما أفادنا في أنَّ معنى (الظلم) هنا هو: (الشرك)»[17].

إذن تتبع الآيات التي تناولت قضية ما والجمع بين دلالاتها وتفسير بعضها لبعض، مما أطلق عليه العلماء فيما بعد بتفسير القرآن بالقرآن، كان معروفاً في الصدر الأول، وقد لجأ رسول الله ﷺ إليه عندما سُئل عن تفسير بعض الآيات من قبل الصَّحابة ﷺ، ولا يزال هذا اللون مستمراً حتى يومنا هذا.

وبما أنَّ التفسير الموضوعي ظهر حديثاً؛ لذا لم يتكلم المفسرون السَّابقون عن قواعده وخطواته وألوانه ولكن العلماء والباحثين المعاصرين أقبلوا عليه يدرسونه

16- صحيح البخاري (الجامع الصحيح): للإمام البخاري (محمد بن إسماعيل البخاري ت256هـ)، تح. د. مصطفى ديب البغا، ط3 دار ابن كثير، بيروت 1407هـ- 1987م: باب ﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: 13]، رقم الحديث: (4498): 1793/4.

17- المدخل إلى التفسير الموضوعي: 29.

ويقصدونه ويتحدثون عن قواعده وأسسه وكيفيته وقد اتجهت أنظار الباحثين إلى هدايات القرآن الكريم حول معطيات الحضارات المعاصرة وظهور المذاهب والاتجاهات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعلوم الكونية والطبيعية. ومثل هذه الموضوعات لا تكاد تتناهى، فكلما جدَّ جديدٌ في العلوم المعاصرة، التفت علماء المسلمين إلى القرآن الكريم ليسترشدوا بهداياته وينظروا في توجيهات الآيات في مثل هذه المجالات[18].

واستمرت هذه الجهود جيلاً بعد جيل، وعصراً بعد عصر، وكلما توالت العصور كلما كانت الحاجة إلى بروز هذا اللون من التفسير أكثر، حتى جاء العصر الحاضر بما فيه من مستجدات وتطورات ومآسٍ ونكباتٍ وقد كثرت البحوث والدراسات القرآنية حول قضايا معاصرة فرضتها حاجة الناس في هذا العصر. يقول الدكتور صلاح الخالدي: «وعندما نتكلم عن الدراسات القرآنية المعاصرة القريبة من التفسير الموضوعي الذي نتكلم عنه فإننا نعني تلك الكتب والدراسات الخاصة بموضوعات وأفكار وحقائق وتوجيهات القرآن والتي تدور حول القرآن ولا تخرج عنه إلى باقي مصادر الإسلام الأخرى كالحديث والفقه والعقيدة والتاريخ واللغة وغير ذلك»[19].

وبهذا يظهر لنا -يقيناً- أنَّ التفسير الموضوعي وإن تأخرت تسميته بهذا الاسم فإنه من علوم السَّابقين ومن مبتكراتهم. ولا شكَّ أنَّ المؤلفات في التفسير الموضوعي قد كثرت في العصر الحديث وأصبحت المكتبة القرآنية تزخر بالمؤلفات فيه فهو ميدان خصب للباحثين[20].

الفرع الثالث: أقسام التفسير الموضوعي وطرق بحثها

ويمكن حصرها في ثلاثة أقسام:

القسم الأول: التفسير الموضوعي للمصطلح القرآني: بحيث يُحدد الباحث لفظة أو

18- ينظر: مباحث في التفسير الموضوعي: د. مصطفى مسلم: 17، 21، 22.

19- التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق: د. صلاح عبد الفتاح الخالدي، ط1 دار النفائس، عمّان، الأردن 1418هـ-1997م: 37.

20- بحوث في أصول التفسير ومناهجه: أ. د. فهد بن عبد الرحمن الرومي، ط5 مكتبة التوبة، الرياض 1420: 65.

مصطلحاً، تكررت في القرآن كثيراً، فيتتبعها من خلال القرآن، ويأتي بمشتقاتها من مادتها اللغوية ويستنبط منها الدلالات واللطائف، كلفظة (الأمَّة في القرآن الكريم)، وجملة (الذين في قلوبهم مرض في القرآن)[21] وبهذه الطريقة يظهر للباحث معان جديدة وألون من البلاغة، ووجوه من الإعجاز، ودلالات قرآنية دقيقة لا تظهر بغير هذا المسلك. والعمدة في الرجوع إلى مثل هذا، كتب غريب القرآن، وكتب الأشباه والنظائر إذ تضمَّنت هذا اللون من التفسير[22].

القسم الثاني: التفسير الموضوعي لموضوع قرآني: بحيث يختار الباحث موضوعاً معيَّناً من خلال سور القرآن الكريم، له أبعاده الواقعية في حياة الأمَّة، ممَّا يفيدهم ويخرج بمحصلةٍ تساعد على حل مشاكل المسلمين ومعالجة أمورهم المستجدة.

وطريقته: أن نجمع الآيات القرآنية ذات الهدف المشترك، ونرتبها على حسب النزول -ما أمكن ذلك- فضلاً عن الوقوف على أسباب النزول -إن وجد- ونتناولها بالشرح والبيان والتعليق والاستنباط مستعينا على ذلك بالسنة النبوية وأقوال السَّلف، مع الإحاطة التامَّة بكل جوانب الموضوع كما ورد في القرآن الكريم بقصد الوصول إلى الغاية المرجوة من وراء هذا البحث القرآني، وإفادة الأمَّة في معالجة قضاياها[23].

وهذا اللون من التفسير هو المشهور في مجال البحوث العلمية الموضوعية، وإذا أطلق اسم التفسير الموضوعي فلا يكاد ينصرف الذهن إلا إليه. لذا كثرت المؤلفات فيه -قديماً وحديثاً- ومنها: أحكام القرآن، وإعجاز القرآن، والتبيان في أقسام القرآن. وغيرها ومن المعلوم أنَّ لكل سورة من السور القرآنية شخصيتها المستقلة، وأنَّ لها هدفاً واضحاً ترمي إلى إيضاحه وبيانه. وإدراك هدف السورة يكشف للباحث معاني دقيقة،

21- ينظر: فصول في أصول التفسير: د. مساعد بن سليمان الطيار، ط3 دار ابن الجوزي، الدمام 1420هـ-1999م: 20.

22- ينظر: البداية في التفسير الموضوعي (دراسة منهجية موضوعية): د. عبد الحي الفرماوي، ط2 مطبعة الحضارة العربية 1397هـ-1977م: 51، مباحث في التفسير الموضوعي: 23، بحوث في أصول التفسير ومناهجه: 66.

23- ينظر: التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: د. أحمد السيد الكومي، ود. محمد أحمد يوسف القاسم، ط1 القاهرة 1402هـ-1982: 22- 23.

ومناسبات لطيفة وصوراً بليغة[24].

القسم الثالث: التفسير الموضوعي لسورة قرآنية: وهو أن يختار الباحث سورة من القرآن، وهذا اللون شبيه بالقسم الثاني إلا أنَّ دائرة هذا اللون أضيق من سابقه، إذ يبحث هنا عن الهدف الجامع الذي تدور حوله السورة، ويكون هذا هو محور بحثه ويخرج منها بدراسة موضوعية متكاملة[25].

وطريقته: أن يستوعب الباحث أهداف السورة المنبثة في أسباب نزولها وترتيبها ومكيها ومدنيها وأسمائها وعدد آياتها ومقاصدها الفرعية وأساليب عرضها والمناسبات بين مقاطعها[26]. فالسورة في مجملها طائفة ملتئمة من الآيات لا تحتمل تقطيعها، والنظر إليها يكون في كلها لا في بعضها، ولا تتمُّ الفائدة إلا باعتبارها كياناً حياً واحداً، وهو ما يرتب على إدراك مقصدها النظر إليها كلها واستيفاء معانيها بتمامها يقول الشاطبي: «اعتبار جهة النظم في السورة لا تتمُّ به فائدة إلا بعد استيفاء جميعها بالنظر؛ فالاقتصار على بعضها فيه غير مفيد غاية المقصود، كما أنَّ الاقتصار على بعض الآية في استفادة حكم ما لا يفيد إلا بعد كمال النظر في جميعها. فسورة البقرة مثلاً كلامٌ واحد باعتبار النظم، واحتوت على أنواع من الكلام بحسب ما ثبت فيها، منها ما هو كالمقدمات والتمهيدات بين يدي الأمر المطلوب، ومنها ما هو كالمؤكد والمتمّم، ومنها ما هو المقصود في الإنزال، وذلك تقرير الأحكام على تفاصيل الأبواب، ومنها الخواتم العائدة على ما قبلها بالتأكيد والتثبيت، وما أشبه ذلك»[27].

فيجعل الباحث السورة القرآنية وحدة واحدة متكاملة هدفها واحد وإن تعددت موضوعاتها، فهي تدور حول مركز ركيز يسمَّى بالغرض سواء كان عامَّاً أو خاصاً،

24- ينظر: مباحث في التفسير الموضوعي: د. مصطفى مسلم: 27، المدخل إلى التفسير الموضوعي: 24-25، التفسير الموضوعي: د. أحمد إبراهيم، ط مجمع البحوث الإسلامية، المكتبة العصرية، بيروت 1971م: 67.

25- ينظر: مباحث في التفسير الموضوعي: المرجع السابق: 28، التفسير الموضوعي للقرآن الكريم ونماذج منه: د. أحمد عبد الله الزهراني، مقالة منشورة في مجلة الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، العدد (85) 1423هـ-2002.

26- ينظر: مباحث في التفسير الموضوعي: المرجع السابق: 29.

27- الموافقات: للشاطبي (إبراهيم بن موسى الغرناطي ت790هـ)، تح. أبو عبيدة مشهور آل سليمان، ط1 دار ابن عفان 1417هـ- 1997م: 4/ 268.

فنقول مثلاً: سورة آل عمران: هدفها تحديد معالم الألوهية الحقة، وإثبات أنَّ الله تعالى واحد لا شريك له. ثمَّ تفسر الموضوعات التي وردت في السورة على هذا الهدف[28].

ولدراسة السورة الواحدة –دراسة موضوعية– فائدتان[29]:

الأولى: بيان التناسب الدَّقيق في عرض الموضوعات المختلفة في السورة الواحدة، وأنَّ السورة تحتوي موضوعاً واحداً محدداً تناقشه نقاشاً علمياً من مختلف جوانبه، فيتم عرض الأدلة التاريخية والعقلية أو العاطفية، وبيان الثواب والعقاب، وغير ذلك من أدلةٍ. وبالتالي فالقرآن الكريم يظهر فيه الإعجاز من خلال ترتيبه وتنسيقه ووحدة موضوع السورة، فهو متناسب في النزول وفي التنسيق وفي بيان الموضوع المحدد الذي تتعرضه السورة.

الثانية: بيان الموضوع الجزئي الذي تعرضه السورة، وهو يُشكل أمراً أساسياً في بناء الفرد والمجتمع.

الفرع الرابع: مميزات التفسير الموضوعي

ولهذا اللون من التفسير خصائص ومميزات من أهمّها:

1. إنه تفسير للقرآن بالقرآن: فما أطلق في مكان منه قيد في مكان آخر وما ذكر موجزاً في موطن منه ذكر مفصلاً في آخر.
2. الوقوف على عظمة القرآن الكريم من خلال مواضيعه المتنوعة والتعرّف على تشريعاته النيرة والمتعددة في معالجة قضايا الأمَّة.
3. أنواع بيان ما تضمنه القرآن الكريم من الهداية الربانية من خلال المواضيع المختلفة والوقوف عندها بتأمّل.
4. التخلق بأخلاق القرآن والانتفاع به من حيث زيادة الإيمان، والتمكن من فهم القرآن الكريم فهماً جيداً وتوجيه ما يمكن توجيهه وفق قواعد التفسير وأصول الترجيح؛ لإزالة ما يوهم التعارض بين الآيات القرآنية[30].

28– ينظر: التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: د. الكومي: 22.

29– الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، السورة الواحدة، (التفسير الموضوعي ومنهج البحث فيه): د. محمود أحمد سعيد الأطرش، ط دار الإيمان، الإسكندرية 2008م: 17–18.

30– ينظر: البداية في التفسير الموضوعي (دراسة منهجية موضوعية): 68–70، التفسير الموضوعي للقرآن الكريم ونماذج منه: د. أحمد عبد الله الزهراني، مقالة منشورة في مجلة الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، العدد (85) 1423هـ–2002.

5. يُعد التفسير الموضوعي في أهمِّ أغراضه تفسيراً دعوياً تربوياً اجتماعياً عصرياً. يهدف إلى بيان الحقائق القرآنية في موضوعات معيَّنة، واستجلاء المنهج القرآني في تناولها، وتنزيل ذلك كله على واقع الناس ومنهج الحياة.
6. الرَّد على أهل الأهواء والشُّبه قديماً وحديثاً لكون دراسة مثل هذا النوع من التفسير يجمع شتات الموضوع الواحد ويُحيط بجميع أطرافه فيمكن دراسته والرَّد على الآخرين.

ولهذا فإنَّ التفسير الموضوعي يختلف عن التفسير التحليلي أو الإجمالي[31]، فمن حيث المراجع العلمية فإنه يعتمد بصورة كبيرة على الاستنباط والتلخيص لما في الآيات من المعاني والإرشادات والإشارات والأسرار القرآنية الدَّقيقة بعد الرجوع إلى التفسير بالمأثور والمعقول، قال الزركشي: « أصل الوقوف على معاني القرآن التدبر والتفكر واعلم أنه لا يحصل للناظر فهم معاني الوحي حقيقة ولا يظهر له أسرار العلم من غيب المعرفة وفي قلبه بدعة أو إصرار على ذنب أو في قلبه كبر أو هوى أو حب الدنيا أو يكون غير متحقق الإيمان أو ضعيف التحقيق أو معتمداً على قول مفسر ليس عنده إلا علم بظاهر أو يكون راجعاً إلى معقوله وهذه كلها حجب وموانع وبعضها آكد من بعض »[32].

ومن حيث المنهج فإنه يعتمد على الموضوعات القرآنية فحسب. ومن حيث التحرير والأسلوب فإنَّ المفسر يحتاج إلى تدبر آيات القرآن الكريم وإلى تعمق فكري لمعاني الذكر الحكيم وتذوق للبيان والأسلوب القرآني الرَّصين، وإلقاء نظرة عامَّة على جميع الآيات المجمعة من حيث تأليفها وترتيبها واستنباط العَلاقة بينها وربط عناصر الموضوع بعضه ببعض، ثمَّ سبك هذه المعاني مترابطة متصلة للخروج بنظرية قرآنية جديدة ولا يتأتى هذا إلا « إذا كان العبد مصغياً إلى كلام ربه ملقياً السمع وهو شهيد القلب لمعاني صفات مخاطبه، ناظراً إلى قدرته تاركاً للمعهود من علمه ومعقوله، متبرئاً

31- ينظر تفصيلهما في: التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: للكومي: 9- 12، 16، دراسات في التفسير الموضوعي للقصص القرآن: د. أحمد جمال العمري، ط1 مكتبة الخانجي، مصر 1406هـ: 40، اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر: أ. د. فهد بن عبد الرحمن الرومي ط1 1407هـ: 3 / 862.

32- البرهان في علوم القرآن: للزركشي (بدر الدين محمد بن عبد الله 794هـ)، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1 دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، القاهرة 1376هـ-1957م: 2 /180- 181.

من حوله وقوته معظماً للمتكلم مفتقراً إلى التفهم بحال مستقيم وقلب سليم وقوة علم وتمكن سمع لفهم الخطاب»[33]. حينئذٍ سيفتح الله عليه أبواب فضله ومعرفته بحيث يقف على عجائب وأسرار عظمة كتاب الله تعالى.

الفرع الخامس: فوائد التفسير الموضوعي

ومن أهمِّ الفوائد التي يتلمّسها الباحث في دراسته لهذا اللون:

1. الاطلاع على أساليب القرآن الكريم المتنوعة.
2. الاطلاع على أحاديث رسول الله ﷺ وأقوال الصَّحابة والتابعين مع تسجيل المزيد من الفوائد والاستنباطات والمناقشات العلميَّة، فضلاً عن الاطلاع على تفسير الآيات التي استخدمت المصطلح أو الموضوع القرآني في أمّهات كتب التفسير للتعرّف عمَّا قالوا فيها إذ لا يمكن للباحث أن يصل إلى نتيجةٍ صحيحةٍ إلا إذا سلك طريقةً سليمة في التعامل مع القرآن الكريم وفهم معانيه وليس ذلك إلا في طريقة المفسرين وكتبهم.
3. الاستفادة من تسجيل الحقائق واللطائف والإشارات، ونقل ما يراه الباحث مناسباً وما يربطه بالواقع المعاصر مع اختلاف وتنوع هذه اللطائف. ثمَّ استخلاص بعض ما يجده من هدايةٍ وعِبَر خلال رحلته مع هذا المصطلح القرآني، واستنتاج بعض الاستنباطات ما يوافق الماضي والحاضر والمستقبل
4. إنَّ هذا النوع من التفسير يُمكِّن الباحث من الوصول سريعاً إلى الهدف دون تعب أو مشقة بين ما ملئت به من كتب التفسير التحليلي من أبحاث لغوية أو فقهية وغير ذلك مما يعوقه عن غرضه نوعاً ما.
5. إنَّ هذا التفسير يُمكِّن الداعية -محاضراً كان أو باحثاً- من الإحاطة التامَّة بأبعاد الموضوع وجوانبه، بالقدر الذي يُمكِّنه أن يُعلل للناس أحكامه بطريقة سهلة واضحة مقنعة، وأن يكشف لهم أسرار القرآن ليذكرهم برحمة الله تعالى بعباده فيما يشرع لهم.
6. تسهيل الوصول إلى الموضوعات القرآنية بصورة متكاملة على القارئ والباحث من خلال تجميع موضوع متكامل في بحث واحد، إذ يجمع الآيات المتناثرة في القرآن ذات الموضوع والهدف الواحد في مكان واحد ثمّ يدرسها دراسة متكاملة،

33- البرهان في علوم القرآن: 2/ 181.

فضلاً عن إزالة ما يوهم التعارض بين آيات القرآن الكريم وتوجيهها توجيهاً سليماً[34].

المطلب الثاني: أهمية التفسير الموضوعي في حياة الأمة

إنَّ من ينعم نظره، ويعمل فكره في هذا النوع من الدراسة القرآنية يرى أنه محاولة جادة وحميدة لمسايرة أفكار الناس، ومتابعة لاهتمامهم وملاحقة لقضايا العصر، التي أصبح جيلنا في حيرة من أمره وتطلع لرأي الدين فيها، ولو قدمت الأبحاث القرآنية بطريقة تناسب في أسلوبها طرائق العصر ومفاهيمه لوجد الناس فيها السكن لخواطرهم والراحة لأفكارهم التي بلبلها التطور العلمي، فضلاً عن البُعد عن الدِّين. لذا تتجلى أهمية التفسير الموضوعي في عصرنا أكثر مما تجلت في غيره؛ ذلك أننا نعيش اليوم عصر القضايا المتلاحقة وإفرازات النشاط البشري، وقد أقرَّ لسان حال الحضارة المادية بإفلاسها في مواجهة تحديات الحياة. وإنسان العصر لم يعد قادراً على مواجهة المشكلات التي صنعها فلا هو يقدر على التخلص منها، ولا هي بالتي تريد تركه.

فالعصر الذي نعيشه يحتاج إلى ذلك النوع من التفسير إذ كان في سلوكه إدراك المقصود من أقرب الطرق والوصول إلى الحقيقة بأسهل الوسائل، خصوصاً أنه في عصرنا يُثار كثير من الغبار في جو الأديان والمذاهب فتنتشر الاختلافات والنزعات والعصبيات وتخلق في سماء الإنسانية سحب الضلال والشبه وليس يقوى على ذلك إلا سلاح قوي واضح سهل متصل بكتاب الله تعالى يُمكِّن العلماء من الذود عن حياضه والدفاع عن دعائمه، وليس هذا إلا بذلك النوع من التفسير إذ كان جامعاً لشتات الموضوعات محيطاً بأطرافها[35].

والإنسان اليوم بحاجة إلى حلٍّ كبير على قدر مأساته، ولما كان الخالق أدرى بصنعته فإنه لا مفر من رد الصنعة إليه، بعد أن تعددت مشكلات الحياة إلى حد يُلْزِم بضرورة التدخل لوضع الحلول الشرعية لها، ولن يتمَّ ذلك بغير تنسم الهدايات الربانيَة واستنطاق مدلولات الآيات، وإماطة اللثام عن وجوه جديدة للإعجاز؛ فالنصوص محدودة ومشكلات البشرية لا نهاية لها. والحق أنه ما من نوع من أنواع التفسير يمكن

34- ينظر: البداية في التفسير الموضوعي (دراسة منهجية موضوعية): 68-70.

35- ينظر: التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: د. الكومي: 19.

أن يوفر للباحث رُتَبَ الإحاطة والدرس الذي تحتاجه مشكلات الحياة مثل ما يوفره التفسير الموضوعي من قدرة على جمع أطراف موضوع الدراسة، واستنطاق إيحاءات الوحي وجمع ثمرات طرق التفسير جملةً، وتوظيفها لتحقيق تلك الغاية الشريفة[36]. ومن هنا تتجلى أهمية التفسير الموضوعي فيما يأتي:

الفرع الأول: إبراز إعجاز القرآن الكريم، على وجه يُلائم العصر

كلما جَدّت على الساحة أفكار جديدة من مُعطيات التقدم الفكري والحضاري وجدها المفسر جلية في آيات القرآن لا لبس فيها ولا غموض بعد تتبع مواطن ذكرها القرآن، فيسجل عندها سبق القرآن إليها ولاسيما من خلال شموله لكل هذه الموضوعات المتكاثرة مع وجازة لفظه، وإظهار كمال كل موضع فيه على حده في غاية التوافق والتناسق. إذ عندما تجتمع الآيات المتعلقة بموضوع واحد أمام نظر الباحث، فإنه يظهر له من الهدايات، والقواعد، والفوائد والمستجدات ما لم يكن مهتدياً إليه دون هذه الطريقة.

ومن يتدبر القرآن يُدرك وفاءه لحاجات البشر على تجدد الحوادث التي لا عهد للسابقين بها، وهذا الإدراك إنما يتجلى على صورته الكاملة من خلال منهج التفسير الموضوعي للقرآن الكريم سوراً وآياتٍ وموضوعات، هذا المنهج الذي يُعنى بالتعرف على الروابط بين الآيات، والروابط بين السور وربط القرآن بقضايا العصر، ومعالجة مشكلاته معالجة تدل على أنه كتاب الله الخاتم ومعجزته لكل عصر.

إنَّ الدراسات القرآنية بالأسلوب الموضوعي يُبيِّن من دون شكٍّ أنَّ القرآن معجزٌ؛ إذ يحتوي على موضوعات عدة، وقادر على مواكبة العصر، وإجابة حاجات جميع المثقفين والمفكرين والمهتمِّين على الرَّغم من اختلاف تخصصاتهم الفكرية، قال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: 38] فهو يُظهر لنا حقائق قرآنية وسنن إلهية في الكون والحياة والعلوم والمعارف ما كان للإنسان أن يقف عليها بدون هذا اللون من التفسير ولن يستطيع القارئ أن يقف عليها من خلال التفسير التحليلي، ممَّا يُسهم ذلك في الدَّعوة إلى الإسلام وفي إنعام النظر في القرآن، ويُسهم أيضاً في الارتقاء بمستوى

36- ينظر: مجلة البيان: الصادرة عن المنتدى الإسلامي، العدد (165)، جمادى الأولى 1422هـ / أغسطس 2001م، السنة (16): دراسات في الشريعة والعقيدة (التفسير الموضوعي): د. عبد الحميد محمود غانم: 19/ 165.

التفكير العلمي الموضوعي عند الباحثين ويصبح لدى العلماء والباحثين ملكة ودُربة في البحث والدراسة والتأليف والتفكير المنضبط بقواعد وأصول وأسس قرآنية مستمدة من القرآن ذاته وليست مستوردة من ثقافات ومعارف الأمم والشعوب الأخرى[37]. فهو يُعالج ما يجدُّ في حياة الناس من قضايا وأحداث لم تكن موجودة سابقاً ولم يكن حكم الشرع فيها واضحاً فيقوم المفسر أو الباحث من خلال هذا اللون من التفسير باستخراج الحلول القرآنية لهذه الأمور المستجدة من خلال استنطاق النصوص وإماطة اللثام عن وجوه جديدة من الهدايات القرآنية، وهذا يُبرز جوانب جديدة من وجوه الإعجاز القرآني.

إذن فإنَّ تفسير القرآن بالمنهج الموضوعي نوع من أنواع الإعجاز الذي تفرد به دون سائر الكتب فليس هناك غير القرآن الكريم كتاب يشتمل سياقه على موضوعات متعددة، دون أن يفقد سلاسته ودون أن يشعر القارئ له بفجوات بين الآية وما تليها. وليس هناك كتاب غير القرآن الكريم يُمكن أن تجمع بعض أجزائه المتناثرة لتكون موضوعاً متكاملاً.

والتفسير الموضوعي للقرآن، هو الأقدر على الوفاء بمقتضيات المنهج الاجتماعي وليس غيره كتفسير القرآن جزءاً بعد جزء، حزباً بعد حزب، ابتداءً من سورة الفاتحة، والبقرة. إلى سورتي الفلق والناس. ولم تقتصر جهود العلماء على الجوانب اللغوية، للكلمات القرآنية، بل جمعوا الآيات التي تشترك في موضوع واحد أو قضية واحدة كالنسخ والقَسَم والمُشكل والأمثال وغيرها فجمعوها ثمَّ تناولوها من الجانب المراد.

والقرآن الكريم إذا كان قد أعجز الأقدمين بلفظه ونظمه وبلاغته، فإنَّ الآخرين لا بد لإعجازهم من وجه مستمر المدى، استمرار التحدي، وهذا يتمثل في معاني القرآن وموضوعاته من طريقين[38]:

الأول: شمول القرآن لكلِّ هذه الموضوعات المتكاثرة مع قلة حجمه، ووجازة لفظه، وهذا يُخالف معهود الكتب وقدرات البشر، كما قال الرَّاغب رحمه الله: وجعل من

37- ينظر: مباحث في التفسير الموضوعي: د. مصطفى مسلم: 31، التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق: 49.

38- المدخل إلى التفسير الموضوعي: 40-41.

معجزة هذا الكتاب أنه مع قلة الحجم متضمن للمعنى الجم، وبحيث تقصر الألباب البشرية عن إحصائه، والآلات الدنيوية عن استيفائه كما نبه عليه بقوله: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [لقمان: 27].

الثاني: كمال كل موضع منه على حده، حين نجمعه الآن، ونؤلف منه كياناً واحداً مؤتلفاً غير مختلفٍ وهذا من أعظم وجوه الإعجاز؛ ذلك لأنَّ القرآن قد تواتر نزوله نجوماً متفرقة، على مدار ثلاث وعشرين عاماً، ثمَّ حين نجمع (نجوم الموضوع) معاً نجدها على غاية التوافق والتناسق، وكأن أقساطه جميعاً قد نزلت في وقت واحد، تعالج قضية ما في موعدها وظروفها، ونجد قانوناً واحداً ينتظم النجوم جميعاً، وهذا ضرب بالغ الإعجاز، لا يستطيعه بشر مهما أوتيَ من إحكام العقل، وجودة العلم والفكر.

الفرع الثاني: الوفاء بحاجات هذا العصر إلى الدِّين وإثراء المعلومات

إنَّ تجدد حاجة إنسان العصر، وبروز أفكار جديدة وانفتاح العالم لا يُمكن معالجة قضاياه إلا باللجوء إلى هذا اللون، إذ إنه يُقدِّم للبشرية بشكل عام حلولاً للمشكلات النفسية والاجتماعية والمُعضلات الأخلاقية والاقتصادية، ففي الغالب ما يُطرح موضوع أو قضية أو فكرة أو مشكلة للبحث ويبقى أيٌّ من ذلك محتاجاً إلى إشباع البحث ومزيد الدراسة، ويتمّ تحقيق ذلك من خلال التفسير الموضوعي بحيث تتبيَّن لذوي الشأن أدلة جديدة، ورؤى مستفيضة، وتفتيق لشيء من أبعاد القضية المطروحة.

وهذا يتحقق بدراسات علمية جادة لموضوعات القرآن الكريم. ولاسيّما إنَّ هذا اللون من التفسير يتفق مع العصر الحديث الذي يُطالبنا أن نُخرجَ للناس أحكاماً عامَّة للمجتمع الإسلامي، مصدرها القرآن الكريم في صورة مواد وقوانين مدروسة يسهل تناولها والانتفاع بها. رجاء أن يكتفي بها ويُعمل بمقتضاها في عصرنا المتجدد. فكلما برزت فكرة أو نظرة جديدة أو علم مستحدث فإننا لا نقدر على تحديد الموقف من هذا العلم وتلك الفكرة أو النظرية وحل المشكلة القائمة، إلا عن طريق تتبع آيات القرآن ذلك «أنَّ نصوص القرآن الكريم محددة والقضايا التي تتناولها بالتوضيح والبيان والتفصيل محددة أيضاً. أمَّا المشاكل الإنسانية وآفاق المعرفة فغير محددة ما دامت الحياة مستمرَّة على هذه الكرة الأرضية ولا يُمكن أن نجابه هذه المُشكلات بظواهر

النصوص المحددة، بل نجد المرونة والسعة في الخطوط الأساسية التي تعرض لها آيات التنزيل الحكيم ... لذا لا يُمكن أن نجابه مشاكل العصر ومعطيات الحضارة إلا بأسلوب الدراسات الموضوعية للقرآن الكريم، أو بأسلوب التفسير الموضوعي»[39].

« لذلك يحتاج الناس إلى معرفة هديه غاية الاحتياج، وإلى فهم ما حواه من شمول موضوعي بالغ غاية الكمال، وإلى إدراك ما يُقدِّمه لهم من حلول لمُشكلاتهم النفسية والاجتماعية، ومُعضلاتهم الأخلاقية والاقتصادية، ولا يتحقق ذلك إلا بدراسات علمية جادة لموضوعات القرآن الكريم، ثم تنصب أمام الناس مثلاً أعلى، وجبلاً ممدوداً للنجاة من هذه المحنة العالمية الطاغية، فإما أن يؤوب الناس إلى دين الفطرة، أو تقوم عليهم الحجة البالغة التي من أجلها تعهد الله تعالى بحفظ القرآن، وجعله صوت النبوة الممدود إلى يوم الدِّين»[40].

من أجل هذا ينبغي علينا اليوم تجديد الدراسة أو البحث في هذا اللون من التفسير الحديث، لما أنَّ مقصد القرآن الإنسان حيث يكون وإلى أي جنس ينتمي؟ ولما أنَّ دعوة القرآن عالمية تهدف إلى توضيح العقائد وتطهير العادات، ورفض العنصرية، ونشر الحق والعدل بين الإنسانية جميعاً. من أجل ذلك أمرنا سبحانه بالفهم والتدبر: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [ص: 29]؛ لأنه أنزله نوراً وهدىً للناس ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ [النحل: 89] وجعله حاوياً للشرائع والأحكام التي لا يُمكن العمل بها إلا إذا فُهمت حق الفهم أمَّا ما سوى ذلك من وجوه البحث والنظر والتي وقف عندها كثيرٌ من المفسرين لا يتعدونه[41].

فلا يُمكن دراسة ذلك وتوضيحه إلا من خلال التفسير الموضوعي، إذ يكشف للناس عمَّا فيه من تشريعات وقواعد تتصل بحياتهم ومشاكلهم، ويُبيِّن لهم ما به من أحكام. ولا يُمكن للباحث أن يستغني عنه بالتفسير التحليلي؛ وذلك لسببين رئيسيين:
أولهما: إنَّ الدراسة الموضوعية تحتوي أطراف القضية، أو المشكلة وتربط بين أجزائها،

39- مباحث في التفسير الموضوعي: د. مصطفى مسلم: 30- 31.

40- المدخل إلى التفسير الموضوعي: 42.

41- ينظر: تفسير المراغي: للشيخ أحمد مصطفى المراغي (ت1371هـ)، ط مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر: 1 /11.

لتعطي القارئ وحدة متكاملة. والمنهج التحليلي لن يُغني في الوصول إلى أهداف الموضوعات القرآنية[42]. إذ الدراسة الموضوعية هي أوقع المناهج وأعمقها للكشف عن علل النصوص ومناسباتها وحكمها وهديها ودلالاتها وظلالها، باستخدام منظار القرآن نفسه طلباً لإدراك ملكة التعرف على المقاصد القرآنية.

ثانيهما: ليس لدى بعضهم دراية بالثقافة الإسلامية، تشجعهم على محاولة الدراسة المستقلة الرَّائدة ليصلوا عن طريقها إلى مرفأ أمين، ولذا يقف الآن أكثرهم حيارَى لا يدرون أي طريق يسلكون. وإن كان قد ظهر في عصرنا الحديث دراسات في موضوعات القرآن الكريم تبنّاها بعض الأجانب –مسلمين وغير مسلمين–، بَيْدَ أنها غير وافية، بل تحمل بين طياتها دعاوى باطلة وشبه واهية؛ وذلك نتيجة لدراستهم للقرآن الكريم دراسة غير موضوعية، أو دراسة موضوعية مبتورة، أو دراسة غير علمية فضلاً عن عدم تمكنهم أو تحصنهم بقدرٍ وافٍ من الثقافة الإسلامية، أو عدم تمرسهم على دراسة هذه الموضوعات بطريقةٍ جادةً.

«فكلما جدّت صنوف المعارف جدّ البحاثة من أهل العلم في استشراف هدايات القرآن بحثاً عن التوجيهات الرَّبانية في هذا الشأن سواء ما تعلق منها بالكون في أرضه وسمائه، أو بالإنسان في خلقه وتكوينه وغرائزه وعقله وأخلاقه، أو بالحياة الاجتماعية وأخذ العبر من سير الأقوام والأمم الماضية، أو بالعَلاقات الدولية وأمور الاقتصاد والسياسة وأنظمة الحرب والسِّلم، أو حتى ما يتعلق بأحوال الغيب»[43].

من أجل هذا وغيره كان على العلماء، وأئمَّة التفسير في عصرنا الحاضر أن يُجددوا الاتجاه إلى دراسة القرآن الكريم دراسة موضوعية. تكشف للناس أهداف القرآن الكريم بطريقة تتناسب وأفهام أهل هذا العصر. وكلنا يعلم أنَّ القرآن الكريم هو مصدر التشريع الأول، وهو السَّبيل لبيان مدى حاجة الإنسانية جمعاء إلى هذا الدِّين ومصدر هدايته وأنَّ القرآن هو الذي يُحقق حاجات الإنسان ومتطلباته وقضاياه ويحلُّ مشكلاته الواقعية، وهذا مما يزيد من إقبال المسلمين على القرآن ويوثق صلتهم به. ولا غرابة أن تعود إليه الأمَّة أولاً وقبل كل شيء.

42– ينظر: دراسات في التفسير الموضوعي للقصص القرآن: 40.

43– مجلة البيان: الصادرة عن المنتدى الإسلامي، العدد (177)، جمادى الأولى 1423هـ / أغسطس 2002م، السنة (17): دراسات في الشريعة والعقيدة (طرق تناول التفسير الموضوعي): د. عبد الحميد محمود غانم: 6/ 177.

الفرع الثالث: تأصيل الدِّراسات القرآنية والعلميَّة

إنَّ جمع الآيات المتعلقة بموضوع واحد في مقام واحد يحكم بعضها على بعض، ويكون تفسيرها على هذا النمط، مع إحصاء الألفاظ تكون هذه الآية مفسرة لتلك، ومن ثمَّ استقصاء المعاني وتتبع تعدد الدلالات القرآنية في مواضعها وموضوعاتها، هذا اللون حين تنضج مباحثه، سيكون له أعظم الأثر في إبراز علوم قرآنية جديدة -مع كونه في الغالب تفسيراً بالمأثور- ودفع تلك الأبحاث نحو التأصيل والاكتمال. حينئذٍ يُدرك الباحث ما بين الآيات من انسجام وترابط وبذلك يتبيِّن له معاني القرآن وهدايته ويظهر له فصاحته وبلاغته. ويحقق دراسات وأبحاثاً قرآنية متخصصة وفي مجالات متنوعة يسهل الاطلاع عليها وتحقيق الهدف والغاية منها. ويعطي الناظر في الموضوع الواحد فكرة تامَّة، تجعله يستقصي كلَّ ما ورد فيه من النصوص القرآنية دُفعة واحدة ليجلي مختلف الموضوع فيخرج منه وقد أحاط به إحاطة تامَّة. ويتيح للباحث نوعاً من العمق والشمولية والتوسع في دراسته ممَّا لا يُمكن الحصول عليه بلون آخر من ألوان التفسير.

حينئذٍ يُمكن للباحث والدَّاعية، دفع التعارض، ورد الشبهات التي قد يُثيرها ذوو الأغراض السيئة ويُمكنه دفع ما يزعمه بعضهم من أنَّ هنالك عداوة بين الدِّين والعلم عند تعرضه لبعض القضايا العلمية التي تعرض لها القرآن الكريم. فجمع أطراف موضوع ما من خلال نصوص القرآن والسنَّة النبوية يُمكِّن الباحث من القيام بدور اجتهادي للتوصل إلى تنظير أصول لهذا الموضوع، وعلى ضوء هدايات القرآن ومقاصده يستطيع مُعالجة أيِّ موضوع يَجدّ على السَّاحة.

لذا فإنَّ جمع الآيات الكريمة جمعاً موضوعياً، وتفسيرها على هذا النمط، سيكون له أثره البالغ في إبراز علوم قرآنية جديدة، ودفعها نحو التأصيل والاكتمال، ومن ذلك(44):

1. **علم الأصول القرآنية:** وهو ابتداء أوسع مدى وشمولاً من علم أصول الفقه المعروف؛ وذلك لأنه يعني: الأصول الجامعة، والقواعد الحاكمة، والقوانين العُليا التي تضبط كل ما يتصل بالقرآن والإسلام من علوم وفنون. ومن المقرَّر أنَّ القرآن

44- ينظر: المدخل إلى التفسير الموضوعي: 43- 51.

الكريم هو دستور محيط، يضم في تضاعيفه هذه الضوابط الكلية الجامعة. ولو تقرَّر (الأصل القرآني) في نفس كلِّ مفسر، لكان خليقاً بتطهير كتب التفاسير من الإسرائيليات، ولصيانة علوم الإسلام عن كلِّ الأباطيل.

2. **علم الإعجاز التشريعي**: من المقرَّر أنَّ القرآن الكريم ما جاء إلا للهداية، وتقرير منهاج الله لعباده، وشريعته للناس، وما جاءت وجوه الإعجاز اللغوي أو العلمي والتاريخي إلا لخدمة هذا الأصل واستمالة وجوه الناس إليه. والتفسير الموضوعي حين تنضج مباحثه، وتتميز موضوعاته على وجهها العلمي، سيكون هو الأساس الذي تقوم عليه دراسات (علم الإعجاز التشريعي) كما يتأسس البناء على قواعده وأصوله.

3. **علم الحِكمة القرآنية**: وهو علمٌ متمِّمٌ لسابقه، ولازم له لزوم الظلِّ لصاحبه؛ لأنه العلم الذي يبرز منهج القرآن في الدَّعوة والإصلاح، وأسلوبه في الهداية وتطبيق المبادئ، وطرائقه الفذة في سياسة الأفراد والجماعات، ووسائله العجيبة في طب النفس البشرية وقاية وعلاجاً من التدرج في التشريع والرِّفق، وتقديم التربية والتزكية على المعرفة العقلية المجرَّدة، وتكرار المبادئ والأحكام بشتى الأساليب حتى ترسخ في النفوس، وتقسيط التعليم وإطالة مُدَّته حتى تتشربه القلوب والعقول.

وفي القرآن العظيم آيات كثيرة تقرِّر الحِكم القرآنية، فإذا جُمعت موضوعياً، ثمَّ فُسِّرت على هذا النمط ورُتبت تحت عنوان جامع، لقام بين أيدينا علم جليل عظيم، لا يقل وجه الإعجاز فيه عن سابقه.

الفرع الرابع: تأهيل مسار الدِّراسات القائمة وتصحيحها

للتفسير الموضوعي مهمَّة بالغة في تصحيح الدِّراسات الدينية والعربية القائمة فعلاً، وإصلاح مسارها وضبطها على معايير قرآنية جامعة. إذ إنَّ هنالك علوماً أخرى ظهرت في العصر الحديث تحتاج إلى تأصيل بضبط مسارها مثل الإعجاز العلمي في القرآن، فقد كثر الكاتبون حوله إلا أنه بحاجة ماسَّة إلى ضبط قواعده وتصحيح مساره، بغرض الاعتدال في توجيهه بعد أن تعرّض لنوع إفراط عند إدخال الآيات القرآنية ذات العَلاقة إلى مجالات العلوم التجريبية التي لم تقعّد نظرياتها بعد، وهذا إنما يتمّ عبر دراسة موضوعية لآيات القرآن وهداياته في هذا المجال.

وهناك علوم ودراسات قائمة منذ القِدَم لكنَّ المسار الذي تنتهجه يحتاج إلى

تصحيح وتعديل، وإعادة تقويم كعلم التاريخ الذي أخذ منهجاً في سرد الوقائع والأحداث من غير تعرض لسنن الله في الكون والمجتمع من حيث الرُّقي والتقدم أو الانحطاط والتخلف، علماً أنَّ هذه السنن قد أبرزتها هدايات القرآن الكريم خلال قصصه بشكل واضح ودقيق(45).

وهناك انحرافات مبثوثة في كتب التاريخ تُخالف ما نصَّ عليه القرآن الكريم، ولن يتمَّ تعديل مثل هذه العلوم وتقويمها إلا بطريق استقصاء منهج القرآن في عرضها ودراستها. وبهذا إثراء المعلومات حول قضية معينة سواء كانت فكرة أو مشكلة أو موضوعاً ما. فما من شيء من العلوم والمعارف إلا وله في القرآن ما يُشير إليه بالعبارة أو بالإشارة، فالقرآن إذن يؤهِّلُ هذه العلوم ويُصحِّحُ مسارها لتسير مع القرآن في اتجاه واحد وتخدم هدفاً واحداً، فعلم أصول التربية القرآنية وأصول علم الاقتصاد الإسلامي وأصول الإعلام وغيرها كل هذه العلوم تحتاج إلى أن تنضبط بتوجيهات القرآن وتعليماته ليجلي جوانبها ويُحدد ملامحها ويربطها بالحياة، ومن ثمَّ يرتب المجال لكلِّ دارسٍ كي يربط تخصصه بهدايات الوحي ويصنع الحياة على عينه؛ فالفقيه يجد مَعِينَه في آيات الأحكام، والمفكر يلتقي بالموارد القرآنية التي يبحث عنها في مظان التدبر وإعمال النظر، والاقتصادي يقف على آيات المال والإنفاق والثروة والإعمار، وعالم الكونيات يرى مراداته في آيات الفلك والنجوم وحركة الكواكب والليل والنهار، والباحث التربوي يلقى ضالته في آيات الإرشاد والوعظ والتوجيه والاعتبار، والمؤرخ يعثر على أخبار الأمم السابقة ودروس العِبَر القرآنية وأحوال الأقوام والدول، وباحث الاجتماع يجمع ثروة هائلة من الآيات الدَّالة على سنن الابتلاء والتمكين والاستدراج والزوال، وأحوال العمران. وكلهم يسوس الحياة كما يريدها الله بعد أن برزت إلى السَّاحة علومٌ جديدةٌ ولا شكَّ أنَّ كلَّ هذه العلوم وغيرها، وما سوف يستحدث منها بحاجةٍ إلى الكتابة فيها من خلال قراءة الوحي وقراءة العصر، وليس لغير منهج التفسير الموضوعي القدرة على تلك القراءة، الأمر الذي سيؤدي إلى تأصيل هذه العلوم في ميادينها(46).

45- ينظر: مباحث في التفسير الموضوعي: د. مصطفى مسلم: 33، المدخل إلى التفسير الموضوعي: 51.

46- ينظر: مجلة البيان: الصادرة عن المنتدى الإسلامي، العدد (165)، جمادى الأولى 1422هـ / أغسطس 2001م، السنة (16): دراسات في الشريعة والعقيدة (التفسير الموضوعي): د. عبد الحميد محمود غانم: 19/ 165.

هذا ويُمكن الوقوف على ذلك من خلال ما يأتي[47]:

أولا: تصحيح طريقة النظر في القرآن الكريم: إنَّ للقرآن الكريم أصوله الجامعة، وقواعده الحاكمة التي لا تعلم إلا بالاستقراء الكلي للألفاظ والدَّلالات، لتصبح حكماً في تقرير القضايا. ولكن كثيراً من الفِرق نظروا في القرآن نظرة مقلوبة، فبدلاً من البحث عن أصوله ليتحاكموا إليها، نظر كل فريق فيه بحثاً عمَّا يُؤيد مذهبه الذي اعتنقه عن هوى، أو عن طريق نظرة جزئية عجلى، تجعل من الآية الواحدة أصلاً ينزل عليه ما عداه، بلا استقراء لموقف القرآن الكلي من الموضوع، أو تأخذ الآية الواحدة منقطعة عن معاني القرآن، وبيان السنَّة، وفهوم الصّحابة وقت النزول.

ومن هنا وقع التكلف والتعسف في فهم الآيات، ولجأت كلُّ فرقةٍ إلى التأويلات الفاسدة، وصرف الآيات عن ظواهرها وحقائقها، وردوا الأحاديث الصَّحيحة التي تفسر القرآن إذا خالفت أقوالهم، فلا يعتمدون السُنَّة ولا إجماع السَّلف وآثارهم. وبذلك صار القرآن فرعاً يفسر على أصول خارجة عنه وسابقة فيه عقول كل فرقة عليه؛ لأنهم استخلصوا من طرائقهم الفقهية، أو الكلامية، أو اللغوية واستمدوها من النظر في فروع المسائل، أو مذاهب الفلسفة أو شواهد اللغة المجردة[48].

ثانياً: إصلاح طريقة التفسير وإنضاجه: وذلك بحصر الجهود في الحقائق والمقاصد القرآنية، وجمع العزائم عليها ليأخذ التفسير وجهته الصَّحيحة؛ لأنَّ القرآن هو كتاب الهداية، وهدايته تكمن في مقاصده ومعانيه (والتفسير الموضوعي) هو الذي يُحقق هذا ويبرزه، وبذلك يوجه جهود المفسرين حول لباب القرآن، ويحفظ طاقاتهم الفكرية العظيمة من التبدد في القشور والأشكال؛ لأنَّ التفسير الموضوعي نمط علمي منضبط ومحدد، يدور فيه الجهود حول جمع الآيات واستخلاص حقائقها واستنباط معانيها، فلا يجد المفسر فرصة للاستغراق في لونه الفني، الذي طغت على التفسير قديماً كالنحو والإعراب، والجدل الكلامي، والاستطراد الفني، وضروب المجاز والبديع، والإسرائيليات ونحوها من الفنون التي غلبت على التفسير حتى أبعدته عن وجهته وغايته الأصيلة.

والمفسر الموضوعي قد يذكر من هذه الفنون عَرَضاً لا غرضاً ولبيان معنى

47- ينظر: المدخل إلى التفسير الموضوعي: 52-55.

48- ينظر: مجموع الفتاوى: للإمام ابن تيمية (تقي الدين أحمد بن عبد الحليم ت728هـ)، تح. أنور الباز، وعامر الجزار، ط3 دار الوفاء 1426هـ-2005م: 7 / 119.

جزئي في موضعه بحيث لا يقطع عليه موضوعه الأصيل، ومن ثمَّ يتخلص التفسير من الحشو الزائد والاستطراد، حينئذٍ يجد المفسِّر نفسه دائماً في دائرة الموضوع الواحد المحدد المعالم والمتقيد بالآيات ذاتها، وفي إطار معانيها ومقاصدها وحقائقها العُليا وفق المنهج العلمي الصَّحيح. وبذلك يُصحِّح التفسير الموضوعي ذلك الخلل التاريخي الخطير الذي وقع في أعظم العلوم الإسلامية وهو (التفسير) ثمَّ تسرَّب منه إلى سائر الدِّراسات الدِّينية والعربية.

ثالثاً: ضبط القواعد العلميَّة: إنَّ جمع الآيات موضوعياً وتحديد دلالات الألفاظ القرآنية من خلال النظرة الكلية الجامعة، يؤدي إلى تصحيح كثير من القواعد، والقوانين، والأحكام الكلية التي قال بها أصحاب الفنون العلميَّة المختلفة في الدِّراسات الدِّينية واللغوية جميعاً. ذلك لأننا حين ننظر إلى كثير منها نجد قائمة على غير استقراء كلي، أو إحصاء واستيعاب شامل، ولو رجع واضعوها إلى (التفسير الموضوعي) لصحَّحوها بأنفسهم ولُحسمت مادة الخلاف بين العلماء في كثير من القضايا.

الفرع الخامس: التأكيد على أهمية تفسير القرآن بالقرآن

هذا لب التفسير الموضوعي، وأعلى وأجل أنواع التفسير، حيث ذهب بعضهم ومنهم د. عبد المنعم القصاص فذكر في بعض تعاريفه بأنَّ التفسير الموضوعي: «هو جمع ما تكرر في القرآن الكريم في موضوع واحد أو هو تفسير القرآن بالقرآن»[49]. فحصره بتفسير القرآن بالقرآن. علماً أنَّ جميع الآيات التي تناولت قضية واحدة والجمع بين دلالاتها والتنسيق بينها كان أبرز ألوان التفسير الذي كان النبيُّ ﷺ يُربي أصحابه عليه، فقد روى البخاري[50] أنَّ رسول الله ﷺ فسر مفاتح الغيب في قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: 59] فقال: «مفاتح الغيب خمس: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: 34]».

وهو منهج الصَّحابة ﷺ، إذ جمعوا بين آيات يربطها رابط، فقد روي عن سعيد

49- دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: د. عبد المنعم علي إبراهيم القصاص، ط 1 الحسين الإسلامية، القاهرة 1411هـ-1990م: 27.

50- صحيح البخاري: باب: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: 59]، رقم الحديث: (4351): 4/ 1693،

بن جبير ﷺ أنه قال: «قال رجلٌ لابن عباس: إني أجد في القرآن أشياء تختلف عليَّ قال: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: 101]. ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [الصافات: 27]. ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: 42]. ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: 23] فقد كتموا في هذه الآية؟ وقال: ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا﴾ إلى قوله: ﴿ ﴾ [النازعات: 27-30] فذكر خلق السماء قبل خلق الأرض، ثمَّ قال: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى ﴾ إلى ﴿طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: 9-11] فذكر في هذه خلق الأرض قبل السماء. وقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: 96] ﴿ حَكِيمًا﴾ [النساء: 56]. ﴿سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء: 58]. فكأنه كان ثمَّ مضى فقال: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ في النفخة الأولى ثم يُنفخ في الصور ﴿فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: 68] فلا أنساب بينهم عند ذلك ولا يتساءلون، ثم في النفخة الآخرة ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾. وأما قوله: ﴿مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ فإنَّ الله يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم، فقال المشركون تعالوا نقول لم نكن مشركين فختم على أفواههم فتنطق أيديهم فعند ذلك عرف أنَّ الله لا يكتم حديثاً ...»[51].

فعندما نجابه بنظرة جديدة أو علم مستحدث فإننا لا نقدر على تحديد الموقف من هذا العلم وتلك النظرية وحل المشكلة القائمة، وبيان بطلان مذهب إلا عن طريق تتبع آيات القرآن الكريم، ومحاولة استنباط ما يجب نحو كلّ أولئك.

وقد يوجد من لا يلجأ إلى القرآن عند إرادة إيضاحه وتفسيره وهذا لقصور فيه أو تقصير منه إذ بالتفسير الموضوعي يُدرك أهمية هذا اللون من التفسير فيزداد عناية به وتتعاضد جهوده لبيانه فيكتفي بتلك الوقفات عند كثير من مشكل القرآن أو مواطن الخلاف بين علماء الأمَّة في تفسير آياته لورود ما يوضح المراد بالقرآن نفسه فهو أبعد عن الخطأ وأقرب إلى الصَّواب، ويظهر ما بين هذه الآيات من انسجام وترابط، وذلك يُعطي فكرة عامَّة عن هذا الموضوع إذ يستقصي كل ما ورد فيه من آياتٍ قرآنية وذلك يُمكِّن الباحث من دفع التعارض بين الآيات إن وجد وكل ذلك يؤدي إلى سرعة الوصول إلى الهدف دون تعب أو مشقة ومن أقرب الطرق وبأسهل الوسائل[52].

لذا فإنَّ الضرورة تدعو اليوم لدراسة المصطلحات والمفاهيم القرآنية بشكل

51- صحيح البخاري: باب: (تفسير سورة حم السجدة)، رقم الحديث: (4537): 4 / 1814.

52- ينظر: البداية في التفسير الموضوعي (دراسة منهجية موضوعية): 71.

موضوعي متكامل؛ لإبراز القضية العامَّة التي وُضع من أجلها. وهذا يؤدي إلى شرح أبعاد هذه القضية لتصبح جزءاً من الثقافة العامَّة، ومصدراً للتوجيه المعرفي والإيماني العام للمسلمين، من شأنه أن يُعزِّزَ في المسلم الثقة بالنفس، وذلك بما يوظف فيه الموضوع القرآني من قوَّة إيمانيَّة من شأنها أن تدفع الإرادة إلى التميز الثقافي من جهةٍ، وإلى الحشد الإنجازي من جهةٍ أخرى.

المطلب الثالث: منهجية التفسير الموضوعي في معالجة القضايا المستجدة

وبناء على ما تقدم فلا بد من تحديد منهج لدراسة الموضوع المختار -كونه صلب بحثنا- في ضبط العمل وتحديد مساره العلمي على وفق أصول ومعالم ثابتة، ومن أجل الإلمام بأطراف الموضوع والرَّبط بين أجزائه وإظهاره في صورة متكاملة تكشف للقارئ أو الباحث عظمة القرآن الكريم وأهدافه السَّامية. وتقضي على الدِّراسات المبتورة والدّعاوى المضللة من المستشرقين وأتباعهم(53).

من أجل ذلك فلا بد من مراعاة الخطوات الآتية والتقيد بها:

أولاً: اختيار موضوع العصر المراد دراسته وتصوره ومحاولة تحديده -بكلِّ دقةٍ- وعنونته «من حيث وجوده في القرآن أولاً، ثم من حيث المعنى ثانياً، حتى لا تختلط عليه القضايا، أو تتداخل المسائل ثم من حيث الأوصاف كالإطلاق والتقيد ونحو ذلك»(54)، فضلاً عن معرفته الدقيقة لمعنى (التفسير الموضوعي) كي يتضح له عمله منذ البداية، ويتجنب الأخطاء التي يقع فيها كثير من الأخوة الباحثين حين يدرجون تحت هذا اللون ما لا يمت له بصلةٍ. مما ينبغي على الباحث أن لا يتكلف فيحاول أن يدخل في القرآن الكريم كلّ شيء مستحدث في العلوم والصناعات بدعوى شمول القرآن لكل شيء من هذه الوسائل، فإنَّ القرآن جاء منهاجاً دينياً شاملاً، أمَّا تفصيلات العلوم البشرية فليست من مقاصد القرآن، وإن قرَّر كثيراً من حقائقها وأصولها كالطب والفلك تدليلاً على عجائب القدرة الإلهية، وحضاً على قبول دعوته الدينية. ومن ذلك ما يتكلفه بعض الباحثين من موضوعات تفصيلية لم يعن القرآن بذكر أعيانها فينسبها للقرآن الكريم مثل بحث بعضهم عن القنبلة الذرية في القرآن، وإن كان القرآن قد ذكر

53- ينظر: البداية في التفسير الموضوعي (دراسة منهجية موضوعية): 57- 61.

54- المدخل إلى التفسير الموضوعي: 58.

الذرة وقبولها للانقسام ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: 61] ولكن لم يذكر الانشطار النووي الذي تقوم عليه القنبلة الذرية، كما حاول بعض الباحثين أن يتكلف ذلك مستدلاً بعذاب قوم شعيب ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ [الشعراء: 189].

هذا وعند اختيار العنوان فينبغي أن يكون لفظاً قرآنياً صريحاً أو مشتقاً، ولا ينبغي العدول عن اللفظ القرآني إلى معناه إلا لضرورة، ولا يجوز البتة ترك اللفظ القرآني إلى غيره من مصطلحات الناس ولاسيما في مواطن الاشتباه فلا يحلّ مثلاً أن يترك لفظ (الشورى) القرآني، إلى لفظ آخر يظنه مرادفاً أو مقارباً، مثل: (الديمقراطية في القرآن). ولا ينخدع الباحث بما يقال من أنَّ (العبرة بالمعاني لا بالمباني) فإنَّ هذه قاعدة ليست على إطلاقها ولاسيِّما بالنسبة للقرآن الكريم؛ لأنَّ مباني القرآن مقصورة لذاتها، والله أعلم بمواقع الألفاظ.

واختيار أجمع لفظ قرآني -عند تعدد الألفاظ- ليكون عنواناً للبحث ومحوراً يدار عليه الموضوع ابتداءً ثمَّ يضم إليه في تكوين الموضوع: الألفاظ المقاربة لمعناه، ثمَّ الألفاظ المقابلة للمعاني؛ لأنَّ كلّ حكم يتقرَّر في النقائض والأضداد سلباً وإيجاباً، يفيد في توضيح حكم ما يقابله، وبضدها تتميز الأشياء. ويوضع هذا كله موضع البحث، والمقارنة، والبيان لمن أراد الاستيعاب واستقراء الموقف القرآني الشامل من موضوع ما. مثال ذلك موضوع: (تفرد الله تعالى في ذاته وصفاته) نختار له أجمع الألفاظ وأشهرها في القرآن: (الوحدانية والتوحيد). ثمَّ المقاربة مثل ألفاظ: (الرب، الإله، العبودية ...). ثمَّ المقابلة، مثل: (الشرك، الكفر، الطاغوت، الأوثان ...).

فإذا وجد الموضوع في القرآن الكريم، ولم يجد للعنوان لفظاً قرآنياً مباشراً، انتزع له عنواناً من أقرب لفظ، بعد النظر في جملة المعاني القرآنية بحيث يمثل الموضوع تمثيلاً واضحاً. ومثال ذلك موضوع: (تقدم الأمم ورقيها المادي والعمراني، ثم طغيانها وهلاكها) فهذا الموضوع موجود في القرآن الكريم بأساليب شتى. فيجوز أن نضعه تحت عنوان: (سنن الله في نشوء الحضارات واندثارها) فلفظ (السنن) موجود في القرآن، لذلك جعلناه أصل العنوان. أمَّا لفظ الحضارة الذي هو ضد البداوة، والذي يعني التقدم العمراني فلم يرد في القرآن الكريم بهذا المعنى نصاً، وإنما على سبيل الاحتمال في قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ [الأعراف: 163] فجاز استعماله في العنوان أخذاً من هذا الاحتمال، أو انتزاعاً من المعاني القرآنية

الواضحة في آيات الموضوع[55].

ثانياً: جمع الآيات القرآنية المتعلقة بالموضوع وتتبعها في سور القرآن الكريم. مستعيناً على ذلك بالمصحف الشريف وحفظ الحافظ له، وببعض الكتب التي عنيت بجمع الآيات تحت عنوان واحد أو التي تجمع الآيات المتماثلة في حروف المعجم مثل كتاب: (المفردات) للرَّاغب الأصفهاني، و(المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم) للأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي وغيرهما كثير[56].

ثالثاً: ترتيبها وفق أسباب النزول لمعرفة المتقدم من المتأخر منها ما أمكن ذلك «حتى يعلم الباحث أن نزول هذه الآية كان في أول العهد، أو وسطه، أو آخره، وكي تتضح له دقائق الموضوع القرآني وليس ذلك بمتعين دائماً إلا في الأحكام الشرعية التي تتوقف صحتها على معرفة الترتيب كالآيات التي نزلت على طريقة التدرج التشريعي مثل: آيات الخمر، والرِّبا»[57].

فبسبب النزول نستعين على توضيح الآيات؛ لأنَّ العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب كما يقول ابن تيمية رحمه الله[58]. وعدم الاطلاع على السبب يوقع المفسر في مواقع الزلل الذي لا يزول بحال من الأحوال إلا بمعرفة سبب النزول.

أمَّا مراعاة المناسبات فبعضهم يخلط بين سبب النزول ومناسبته. وبينهما فرق ولا شك أنَّ السبب هو الذي من أجله نزلت الآية أو السورة. أمَّا المناسبة فليست كذلك إنما تهتم «بوجه الارتباط بين الجملة والجملة في الآية الواحدة، أو بين الآية والآية في الآيات المتعددة، أو بين السورة والسورة»[59]. أو كما يقول البقاعي: «علم تعرف منه علل ترتيب أجزاء القرآن»[60].

55- ينظر: المدخل إلى التفسير الموضوعي: 63.

56- ينظر: التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: د. الكومي: 23.

57- المدخل إلى التفسير الموضوعي: 63 (بتصرف يسير). وينظر: التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: د. الكومي: 23، مباحث في التفسير الموضوعي: د. عبد السلام اللوح، ود. عبد الكريم الدهشان، ط1 مكتبة الجامعة الإسلامية، غزة 2003م: 55.

58- ينظر: مجموع الفتاوى: 13 / 339.

59- مباحث في علوم القرآن: مناع القطان، ط3 مكتبة المعارف للنشر والتوزيع 1421هـ-2000م: 96.

60- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: للبقاعي (إبراهيم بن عمر ت 885هـ)، ط2 دار الكتاب =

رابعاً: استنباط عناصر الموضوع من طرق عرض القرآن له وأقوال أهل التفسير فيه، وشرحها شرحاً وافياً يجلي مضمونها ويكشف عن مكنونها ويربط بين أجزائها، وإزالة ما يتوهم أنه اختلاف وتناقض بينها، أو ناسخ ومنسوخ، أو خاص وعام، أو مطلق ومقيّد، أو مجمل ومفسر(61).

كلّ هذا بعد «فهم الآيات الكريمة قبل الشروع في التفسير الموضوعي، وهو أمر ضروري حتى يستطيع المفسر ترتيبها وتأليف عناصرها، ولذلك ينبغي الرجوع إلى كتب التفسير التي تناسب الموضوع، ليعلم معاني الآيات الكريمة في مواضعها من ترتب المصحف الشريف، وليتبين أحوالها المتعددة من حيث الناسخ والمنسوخ، أو العموم والخصوص ونحو ذلك. وبذلك يكون التفسير التحليلي ضرورة للتفسير الموضوعي، فهما يتعاونان ولا يتعارضان، بل يتكاملان لخدمة النص القرآني وإنضاج (علم التفسير) كله»(62).

خامساً: الاستعانة في الموضوع بما صحَّ عن النبي ﷺ من السنَّة الصَّحيحة المبينة لما أجمل، والمفسرة لما أشكل والمقيدة لما أطلق. والمخصصة لما جاء عاماً.

سادساً: الاستعانة في هذا كله بفهم السلف الصالح لنصوص الوحيين. وعدم الاتكال على العقل أو الاجتهاد الشخصي إلا بعد استكمال أسباب الأهلية(63).

سابعاً: التنسيق بين تلك العناصر بما تقتضيه طبيعة البحث والتسلسل المنطقي، فضلاً عن وضع مقدمة تكشف عن طريقة القرآن الكريم في عرض أفكار ذلك الموضوع. «وإخراج الموضوع في صورة متكاملة تامة البناء والإحكام بمراعاة شروط البحث العلمي، واضعاً نصب عينيه أنه يبرز للناس طريقاً من طرق إرشاد القراءات للتي هي أقوم، طارحاً وراءه عقيدة فاسدة، أو أية مؤثرات خارجية قد تطغى على الحقيقة المنشودة من وراء بحثه للآيات القرآنية، ويكون هدفه الأسمى إبراز محاسن القرآن لخدمة الأفراد والمجتمع الإسلامي»(64).

=

الإسلامي، القاهرة: 1/ 6.

61- ينظر: التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: د. الكومي: 23- 24.

62- المدخل إلى التفسير الموضوعي: 64.

63- ينظر: البداية في التفسير الموضوعي: 61، التفسير الموضوعي: د. محمد القاسم: 17- 18.

64- التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: د. الكومي: 24.

ثامناً: تقسيم الموضوع إلى أبواب وفصول ومباحث ومسائل، مستدلاً على ذلك التقسيم بالوحيين القرآن والسنة. ومن ثمَّ ربط الموضوع بواقع الحياة ومشكلاتها محاولاً تقديم الحلول القرآنية لها. وعليه فهو دراسة سورة أو إفراد آيات تعالج موضوعاً واحداً وهدفاً واحداً، بعد ضمِّ بعضها إلى بعض في مكان واحد، مهما تنوَّعت ألفاظها، وتعددت مواطنها، دراسة متكاملة مع مراعاة ترتيبها حسب أسباب النزول، والمناسبات لكي يعرف المتقدم منها من المتأخر، مستعيناً في ذلك باللغة والسنة النبوية وأقوال السلف المتعلقة بالموضوع ذاته فهو جمع الآيات المتناثرة التي تتحدث عن موضوعٍ أو لفظة أو جملة، أو دراسة سورة من القرآن في مكان واحد بعد تبويبه واستنتاج الفوائد واستخلاص الهدايات والعِبَر من هذا المجموع، محاولاً قدر جهده وطاقته الإحاطة بجوانب الموضوع كله، واستنباط عناصر الموضوع من خلال ما بين يديه من آيات، ثمَّ التنسيق بين تلك العناصر بحيث يقسمها إلى أبواب وفصول حسب حاجة الموضوع ويقدِّم لذلك بمقدِّمة حول أسلوب القرآن في عرض أفكار الموضوع. متجنباً في ذلك الاختيار من أقوال المفسرين ما يوافق غرضه فحسب، دون تمييز الصحيح من الضعيف والرَّاجح من المرجوح، ويجب عليه التقيد التام بصحيح المأثور عند عودته إلى الأحاديث وأقوال الصحابة والتابعين وأن يتجنب «الحشو والاستطراد في التعليق؛ لأنَّ قصد الباحث في التفسير الموضوعي هو إبراز موقف القرآن الكريم من قضايا ومسائل موضوعة»(65).

بعد هذا كله يقسم المفسر الموضوع إلى عناصر وأجزاء، منتزعة من صميم المعاني المقررة في الآيات الكريمة، ويربط بينها برباط علمي يجعل من الموضوع وحدة واحدة مسلسلة ومرتبة ترتيباً فنياً يتفق مع النمط القرآني، فيقدم ما يتعلق بذات الله على كل شيء، وما يتعلق بالأصول على الفروع وما يتصل بالفرائض على ما دونه، وهكذا يقدم الأهم على المهم وجواهر الأشياء على أعراضها وفق خطة ونظام يبرز إعجاز القرآن في موضوعاته كما هو معجز في مواضع آياته المرتبة في سورها؛ لأنَّ كليهما جاء بقدر موزون، أو كما قال سبحانه: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: 1].

فإذا استوت هذه العناصر أمام نظر المفسر، ضمَّ إلى كلٍّ منها ما يلائمه من

65- مباحث في التفسير الموضوعي: د. مصطفى مسلم: 73.

الآيات بلا تكلف ويفسر مفرداتها ومعانيها المتصلة بالموضوع اتصالاً وثيقاً مع الاقتصار على (موضع الدلالة) من الآية الكريمة إن كانت متعددة الأغراض؛ لأنّ التفسير هنا مرتبط بالموضوع ولكل مقام مقال، وما العلم إلا مراعاة مقتضى الحال.

وإذا كان الموضوع ممَّا يرد عليه بعض الشبهات، التمس الرد من آيات الموضوع ذاته فإنَّ الله تعالى أودع كتابه معاني لا تحصى، وردّ على كلِّ معارض ومعاند إلى يوم القيامة بأصول جامعةٍ، وألفاظ حافلةٍ ﴿تُؤْتِيَ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: 25]. فإن لم يفتح للمفسر من هذا التمس الرد من القرآن في موضوع آخر مناسب لموضوعه كموضوع (الغيب) بالنسبة (لصفات الله تعالى)، وكموضوع (الوحي) بالنسبة لموضوع (الرِّسالة والرُّسل) ... وهكذا.

ولا يخرج عن إطار القرآن الكريم في هذا الباب، إلا إلى الآثار الصَّحيحة من السنَّة النبوية، أو أقوال السَّلف الصَّالح، التي في ذات الموضوع؛ لأنها شارحة للقرآن، أما الردود العقلية والأبحاث الفكرية فلها موضع آخر غير التفسير الموضوعي، وإلا ضاع هذا النوع في غمارها، كما حدث مع التفسير التحليلي قديماً[66].

تاسعاً: التقيد التام بقواعد وضوابط هذا التفسير، فالقصد منها لفت انتباه المفسرين إليها، ووجوب مراعاتها حتى يتجنب الحشو والاستطراد والتقسيمات الفنية المحضة التي وردت في مصطلحات العلوم المنطقية والفلسفية وغيرها، ولا يتورط في تقسيمات أو تقعيد قواعد لا تشهد لها نصوص القرآن الكريم المباشرة[67].

فعلى من يسلك دراسة هذا العلم أن لا يجزئ الموضوع أو يبتره ويضيق على نفسه بالتغافل عن السنَّة النبوية الصَّحيحة، فهي متلازمة للقرآن لا تنفك عنه، وهي الشارحة والموضحة والتي يمكننا أن نستقي منها عنوانات البحث عند دراستنا للفظة أو جملة قرآنية، كل هذا فضلاً عن أقوال الصحابة والتابعين وأتباع التابعين الصحيحة منها. وعلى الباحث في هذا اللون أن لا يسهب في الكتابة وينحى منحى الأسلوب الأدبي والخطابي دائماً فيبتعد عن التقرير العلمي حتى يمل القارئ ويطيل العبارات ويكثر الأوراق في حين ربما يمكن إيجازه في ورقة واحدة بدلاً عن خمس ورقات وهذا الأخير من الحشو الذي يمكن الاستغناء عنه.

66- ينظر: المدخل إلى التفسير الموضوعي: 65-66.

67- ينظر: المرجع نفسه: 66.

وعليه أن يتجنب خلال بحثه التعرّض للأمور الجزئية في تفسير الآيات، فلا يذكر القراءات ووجوه الإعراب ونحو ذلك إلا بمقدار ما يخدم الموضوع ويتصل به اتصالاً أساسياً مباشراً. ولا يمكن له أن يدرس بعض الموضوعات في القرآن الكريم بطريقة التفسير الموضعي للآيات، إذ إنَّ موضوع الأسماء والصِّفات -مثلاً- يلزم لدراسته نظرة شاملة موضوعية لكلِّ آيات الأسماء والصِّفات في القرآن فآيات الصِّفات التي وردت في مواضع كثيرة لا يتمُّ فهمها على الوجه الصحيح إلا بتطبيق القاعدة القرآنية الواردة في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11].

وقبل كل شيء على الباحث أن يتحرى الصدق والصواب، وأن يخلص نيته لله في تبيين الحق للناس من أجل هدايتهم، وأن يعلم خطورة ما يتناوله ويعبر عنه. وينبغي عليه أن يتحلى بالصبر مع توفر الكفاءة العلمية المكتسبة حتى يميز الحق من الباطل ويقبله ويلتزم بالموضوعية دون تحيز لفكرة أو رأي سابق مع التقيد بالمنهج العلمي في التوثيق والاقتباس والإحالات.

وإذا ما أرد الباحث أن يدرسَ سورة ما، لاشتمالها على موضوعات عصريَّة، فعليه مراعاة ما يأتي[68] فضلاً عمَّا تقدم:

- تحديد أهداف السورة الأساسية ومقاصدها الرئيسة، واستخراج هذه الأهداف والمقاصد من خلال القراءة الواعية المتدبرة لآيات السور عدة مرات، والاستدلال على كل هدف أو مقصد يسجله بمجموعة من آيات السورة.
- التعرف على موضوع السورة الرئيس، ثم التعرف على محاور السورة وخطوطها الرئيسة وربط هذه المحاور والخطوط مع عمود السورة والاستشهاد على ذلك بآيات السورة.
- ربط السورة بما قبلها من السور حسب ترتيب المصحف من حيث التناسب في الموضوع العام لكل منها.
- استخلاص أهم حقائق السورة والدلالات التي نقررها، والإشارة إلى أبعاد السور الواقعية وكيفية معالجتها لمشكلات الإنسان المعاصرة.

هذا ولا تتحقق منهجية التفسير الموضوعي لمعالجة القضايا المستجدة إلا

68- ينظر: مباحث في التفسير الموضوعي: د. عبد السلام اللوح: 55- 57.

بأمور[69] من أهمِّها:

أولاً: فهم معاني الألفاظ المفردة بحيث يحقق المفسر اللفظ من القرآن بجمع ما تكرر منه وينظر فيه فلربما استعمل بمعان مختلفة كلفظ: (الهداية) فيعرف المعنى المطلوب من بين معانيه؛ فإنَّ القرآن يفسر بعضه بعضاً، وإن أفضل قرينة تقوم على حقيقة معنى اللفظ هي موافقته لما سبق له من القول واتفاقه مع جملة المعنى، وائتلافه مع المقاصد التي جاء بها الوحي في جملته.

ثانياً: فهم الأساليب والتفطن لنكت القرآن ومحاسنه بقدر الطاقة، ويحتاج هذا إلى علم الإعراب، وعلوم المعاني والبيان، واستعمالات أهل اللغة باعتبارها آلة الوحي ومحفظته.

ثالثاً: العلم بأحوال البشر؛ فهذا الكتاب آخر الكتب، وفيه بيان ما ليس في غيره من أحوال الخلق وطبائعهم، والأمم وتبدلها، والسنن الإلهية، وأحسن القصص، ومناشئ الاتفاق والافتراق، وذلك يحتاج إلى جملة فنون من أهمها علم التاريخ الصَّحيح، والسنن الإلهية.

رابعاً: العلم بوجوه هدايات القرآن للبشر، وذلك يستلزم الوقوف على ما كان عليه الناس في عصر الرسالة وقُبَيْلَه، وما قبّحه القرآن من طباع الجاهلية؛ فإن عُرى الإسلام تُنتقض إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية، ومن جَهِل حال الناس قبل القرآن جهل تأثير هداياته فيهم.

خامساً: العلم بالسِّيرة النبوية وأحوال الصَّحابة والتابعين؛ فإنَّ هذا العصر هو أزكى مراحل الاتباع النقي لهدايات الوحي ومقاصده.

وممَّا ينبغي أن يُعلم أنَّ التفسير بجميع أشكاله، وصوره، وطرقه متى ما سلم من الانحراف في الاستدلال بالقرآن العظيم على قضاياه؛ فهو حق، وهداية، ورشاد؛ كما أخبر الله عز وجل بقوله: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: 9]. وهو بهذا يؤدي غرضه المراد منه، كما يؤدي كلٌّ من التفسير اللغوي والفقهي والعلمي غرضه المراد منه. حينئذٍ فلا فرق بين من فسَّر القرآن بناءاً على ترتيب النزول، ومن انتقى آيات

69- ينظر: تفسير القرآن الحكيم، والمشهور بـ(تفسير المنار): محمد رشيد رضا، ط2 دار المنار، القاهرة 1366هـ-1947م: 1/21- 24، علوم القرآن: د. عدنان محمد زرزور، ط1 المكتب الإسلامي، دمشق 1401هـ: 409- 411.

الأحكام وفسرها –دون غيرها– من ناحيةٍ فقهيةٍ، ذاكراً فيها أقوال العلماء واختلافهم، وبين من انتقى آيات ذات موضوع قرآني مشترك، أو لفظة قرآنية، وفسَّرها تفسيراً علمياً منهجياً موجهاً له وجهة دعوية تربوية اجتماعية، تتصل بحياة الناس، وتلامس واقعهم فهو بذلك يبدأ من الواقع وينتهي إلى القرآن، لذا يبقى التفسير الموضوعي هو الأوسع أفقاً والأكثر عطاءً وإبداعاً باستمرار.

وقبل أن أختم بحثي هذا أرى من الضرورة بمكان أن أتطرَّقَ إلى دواعي دراسة وانتشار التفسير الموضوعي وتطوره في العصر الحديث، والتي يُمكن إجمالها فيما يأتي –استكمالاً للفائدة–:

1. وجود أمور مستجدة جاءت بعد إن لم تكن في العصور الماضية فلا بد من بيان حكم القرآن في هذه القضايا، وهذا لا يكون إلا من خلال البحث في القرآن ذاته لاستخلاص الأحكام التي تتعلق بهذه القضايا والمستجدات على اختلاف تنوعها[70].
2. بُعد الناس عن زمن التنزيل وجهلهم بكثيرٍ من قضايا القرآن وأحكامه المتعلقة بشئونهم الخاصة والعامَّة وبالتالي هم فيٍ حاجة ماسة لمثل هذه الموضوعات القرآنية التي تجمع كل ما يتعلق بالموضوع الواحد من آيات متفرقة في سور القرآن، فيتعرفون مثلاً على الأخلاق في القرآن الكريم وعلى أحكام البيوع في القرآن الكريم وعلى أحكام السِّلم والحرب في القرآن الكريم، وغيرها من الأحكام والموضوعات المتعددة.
3. حاجة الناس إلى دراسات متخصصة ومتعمقة في الموضوعات القرآنية مع وجود علماء قد تخصصوا في تفسير القرآن وعلومه خاصة، كل ذلك دعا وسهل وجود هذا النوع من التفسير خاصة وأنه ليس من السهل أن يوقف على هذا الهدف من خلال كتب التفسير التحليلي التي تحوي بين ثناياها التفسير وغيره من علوم لها عَلاقة بالنصِّ القرآني[71].
4. وجود شبهات وطعونات ضد الإسلام والمسلمين أثارها أعداء الإسلام من مبشرين ومستشرقين وانطلقوا في شبهاتهم من خلال دراسات ومعاجم وفهارس وضعوها لتعينهم وتسهل عليهم اختلاق الشبهات، فكان لا بد من وجود ردود حاسمة تحمل

70– ينظر: المدخل إلى التفسير الموضوعي: 35.

71– ينظر: المرجع نفسه: 36.

نفس المنهج الموضوعي لدفع تلك الشبهات وإثبات بطلانها، وأهم تلك الشبهات كانت تدور حول أحكام الميراث في القرآن الكريم وأنها لم تساوِ بين الرجل والمرأة في الميراث، ومنها أحكام تتعلق بالمرأة من حيث عدم مخالطَتها للرجال والتزامها بالحجاب وإباحة التعدد وغيرها من قضايا، فكان لزاماً أن تظهر عدالة الإسلام واستقامة أحكام القرآن في هذه القضايا وأمثالها من خلال دراسات موضوعية قرآنية[72].

5. الوضع المتردي المؤلم الذي حل بالمسلمين في هذا الزمان حيث ازدادت الهجمة الشرسة على ديار المسلمين ومقدساتهم وضاعت الخلافة الإسلامية بسبب ما حلَّ بالمسلمين من ضعف وهوان ممَّا جرأ أعداء الله على مزيد من التآمر والكيد للإسلام والمسلمين مستغلين ظاهرة الضعف العام والهزائم التي حلت بديارهم ونفوسهم، فاقتضى ذلك التفكير في الخلاص الجاد بالعود إلى دين الله المتمثل في كتاب الله وسنَّة نبيه دراسةً واستنارةً واهتداءً، وهذا يقتضي دراسة متعمقة في أحكامه وموضوعاته لفهم معانيه وأهدافه وغاياته والتي منها عزة الأمة وقوتها وانتصارها ونفض غبار الذل والهوان عن كاهل الأمَّة، فقد أعز الله الأمَّة بهذا الدِّين فلا عزة لها في غيره، بل إن ابتغت العزة في غيره أذلها الله ذلاً لا يندفع عنها إلا بالعود إلى دينه[73].

6. إنَّ لكل عصر ولكل جيل متطلبات خاصة به تتناسب مع ظروفه وأحواله وتتناسب مع معطيات العصر والتطور العلمي والتكنولوجي والحضاري لذلك العصر، فلا بد أن يرتقي البحث في الدراسات القرآنية بما يلائم معطيات العصر ومتطلباته سواء فيما يتعلق بمواكبة التقدم العلمي أو فيما جدَّ في حياة الناس من قضايا، أو فيما جدَّ من وسائل البحث والدراسات الإحصائية الجامعية، ومن أهمِّ ما برز ليخدم الدِّراسات القرآنية الموضوعية ويساعد على ظهورها وبروزها في العصر الحاضر تلك المعاجم والفهارس التي سهلت الوقوف على الآيات المتعلقة بالموضوعات المتخصصة مع سهولة جمعها والتنسيق بينها ليكتمل منها الموضوع ناضجاً محققاً للهدف والغاية التي وُجِدَ لأجلها[74].

72- ينظر: المدخل إلى التفسير الموضوعي: 35.

73- ينظر: التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق: 47.

74- ينظر: المرجع نفسه: 48.

الخاتمة

وممّا سبق يتضح لنا جليّاً أهمية هذا الموضوع الشيِّق، وآثاره العظيمة التي تبرز في الوسط الإسلامي وغيره، وبعد هذه الجولة المتواضعة أخلص إلى ما يأتي:

1. إنَّ التفسير الموضوعي ليس مبتدعاً، بل هو علم أصيل بدأت بذوره ولبناته منذ عهد رسول الله ﷺ، وللسَّلف الصَّالح سبق الفضل واليد الطولى في هذا اللون، بَيْدَ أنَّ هذه اللبنات كانت تمهيدية لم تكن تأخذ صورة التفسير الموضوعي من حيث التقعيد والتأصيل واستمرت هذه الجهود جيلاً بعد جيل وعصراً بعد عصر وكلما توالت العصور كانت الحاجة إلى بروز هذا اللون أكثر.

2. إنَّ مصطلح التفسير الموضوعي وإن تأخرت تسميته بهذا الاسم فإنه من علوم السَّابقين ومن مبتكراتهم والمؤلفات فيه قد كثرت في العصر الحديث وأصبحت المكتبة القرآنية تزخر بها، فهو ميدان خصب للباحثين.

3. إنَّ التفسير الموضوعي لا يعني أبداً الاستغناء عن السنَّة، بل هي الشارحة والمبيِّنة لما أجمل والموضحة لما أشكل، مع الأخذ -ضرورة- بتقييداتها وتخصيصاتها وعنواناتها وما شابه ذلك. وكذلك آثار السَّلف، وإن اختلفت عنونة الأبواب والفصول، ولاسيما إنَّ الباحث سيبني أحكاماً وفوائد، وهذا ما سطَّره منظرو التفسير الموضوعي.

4. ظهرت أهداف التفسير الموضوعي وأهميته باعتباره يُعالج ما جدَّ وما يجِدُّ من قضايا وأحداث تعرض للناس ولم تكن موجودة من قبل، فضلاً عن كونه يُمثل خط الدِّفاع الأول للشبهات والطعونات التي يُثيرها أعداء الإسلام مع بروز ألوان من الإعجاز القرآني من خلال وحدة الموضوع وتكامله ووحدة السورة وترابطها، إلى غيرها من أهداف وغايات.

5. إنَّ تطور التفسير الموضوعي قائم على الصِّلة بين النصِّ والواقع، إذ يُشير إلى أبعاد السور الواقعية وكيفية معالجتها لمشكلات الإنسان المعاصرة. والقرآن الكريم لا يعجز أن يبحث في أي موضوع ولو في وجهٍ واحد من وجوهه وهذا من إعجازه.

6. إنَّ هذا اللون هو فهم لمعاني كلام الله تعالى وليس مجرد فوائد فحسب، وهو المنهج الأسهل والأقرب إلى فهم الإنسان المعاصر. علماً أنَّ البحث فيه دفعت إليه

حاجات الأمة في وقتها المعاصر وحرصها على الانطلاق منه في كل أمر.

7. إنَّ منطلق العرض والاستدلال والدراسة للتفسير الموضوعي هو آيات القرآن الكريم لا غير مع ربط كل ذلك بواقع الناس ومشكلاتهم، وإن تطرَّق الباحث إلى شيءٍ من غير الوحيين في الموضوع فيذكره من باب الاعتضاد لا الاعتماد، فضلاً عن إيراد الأرجح من الآراء دون إطالة أو إسهاب.

8. ينبغي للباحث عند دراسته للموضوعات إعطاء الأولوية التي تلبي حاجة العصر مثل: الفقر، الغنى، الكسب التقدم، التخلف، الإنسان بحيث يتحول وجدانه المعاصر إلى نظريات وتصورات قادرة على تحليل أزمات العصر. مع الاهتمام بتجارب الحياة، ولا تفسير إن لم يكن لدى الباحث أو المفسر تجارب حياتية.

9. إنَّ دراسة القرآن على أسلوب التفسير الموضوعي يُعد ضرورة مناسبة إذ يُمثل لبنة من لبنات معالجة قضايا العصر وحل مشكلاته عن طريق القرآن، فهو الأسلوب الموضوعي الأقرب والمقنع في مجابهة مشاكل العصر ومعطيات الحضارة سواء في ذلك التفسير الذي يُعالج وحدة الموضوع في القرآن، أو ذلك الذي يُعالج وحدة الموضوع في السورة.

10. تبرز أهمية هذا التفسير في إصلاح واقع الحياة ومواكبته، فهو متجدد ومعطاء وهو السبيل لبيان مدى حاجة الإنسان إلى هذا الدّين وحل مشكلاته المستجدة، فضلاً عن تحقيق هذا النوع من إثراء المعلومات حول قضية معينة وتأصيل للدراسات والمناهج في كل مناحي الحياة، ممَّا يجعله أقرب إلى النضج والكمَال، ويزيد المفسر معلوماتٍ قيمة لم يظفر بها غيره.

11. يُسهم هذا العلم في الدَّعوة إلى الإسلام والحفاظ على العقيدة والارتقاء بمستوى التفكير العلمي الموضوعي لدى الباحثين وإيصالهم نحو الهدف دون تعب أو مشقة؛ لما يتسم به من منهج فريد ومسلك علمي في اختيار الألفاظ وثراء المعاني وروعة الطرق في جمع الآيات وتتبعها وتنزيلها على الواقع واستخلاص الهدف، مع مراعاة مقاصد القرآن وأصول التفسير وقواعده، ومراعاة مقاصد السور وسياق الآيات.

12. يُعد التفسير الموضوعي في أهمِّ أغراضه تفسيراً دعوياً تربوياً اجتماعياً عصريَّاً. يهدف إلى بيان الحقائق القرآنية في موضوعات معيَّنة، واستجلاء المنهج القرآني

في تناولها، وتنزيل ذلك كله على واقع الناس ومنهج الحياة.

وآخر دعوانا أن الحمد للهِ ربّ العالمينَ.